الدكتور باسم محمد حبيب

حضارة بلاد الرافدين

قضايا ودراسات في التاريخ والآثار



2022

حضارة بلاد الرافدين قضايا ودراسات في التاريخ والآثار

الدكتور باسم محمد حبيب

2022

حضارة بلاد الرافدين

قضايا ودراسات في التاريخ والآثار

لا تتميز حضارة بلاد الرافدين بقدمها التاريخي فحسب بل وبعطائها الحضاري أيضا ، و الذي يمكن تلمسه في كثير من المبتكرات والمنجزات البشرية من عمائر و قوانين وعلوم وفنون وآداب .. الخ ، بحيث لا نجد مجالا بشريا إلا ونجد فيه إسهاما لحضارة بلاد الرافدين ، من دون إغفال إسهامات الحضارات الأخرى سواء أكانت القديمة أم الوسيطة التي كان لجميعها أثر في إثراء الحضارة العالمية الحديثة في جانب أو أكثر من الجوانب الحضارية ، لكن ما يحسب لحضارة بلاد الرافدين أن إسهاماتها كانت رائدة و ومبتكرة و مؤثرة في مسار الحضارة العام ، كما هو الحال مع الكتابة التي يعدها معظم الباحثين اختراعا رافديا صرفا ، فضلا عن كثير من المكتشفات العلمية و المخترعات التقنية والمبتكرات الفنية والأدبية.

ISBN

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد - (١٧٣٧) لسنة ٢٠٢٢

حضارة بلاد الرافدين

قضايا ودراسات في التاريخ والآثار

أ.م.د باسم محمد حبيب

مقدمة

لا تتميز حضارة بلاد الرافدين بقدمها التاريخي فحسب بل وبعطائها الحضاري أيضا ، و الذي يمكن تلمسه في كثير من المبتكرات والمنجزات البشرية من عمائر و قوانين وعلوم وفنون وآداب .. الخ ، بحيث لا نجد مجالا بشريا إلا ونجد فيه إسهاما لحضارة بلاد الرافدين ، من دون إغفال إسهامات الحضارات الأخرى سواء أكانت القديمة أم الوسيطة التي كان لجميعها أثر في إثراء الحضارة العالمية الحديثة في جانب أو أكثر من الجوانب الحضارية ، لكن ما يحسب لحضارة بلاد الرافدين أن إسهاماتها كانت رائدة و ومبتكرة و مؤثرة في مسار الحضارة العام ، كما هو الحال مع الكتابة التي يعدها معظم الباحثين اختراعا رافديا صرفا ، فضلا عن كثير من المكتشفات العلمية و المخترعات التقنية والمبتكرات الفنية والأدبية .

ولأننا لا نريد أن نتناول مواضيع تم التطرق إليها و دراستها سابقا ، فأننا سنكتفي بتناول بعض القضايا التي إما لم يجر التطرق لها مطلقا أو تم التطرق لها ولكن من دون دراستها بشكل واف وواسع ، إذ مازالت حضارة بلاد الرافدين تغري الباحثين سواء أكان لوجود كثير من المواقع الأثرية غير المكتشفة أو المكتشفة بشكل جزئي أم لوجود جوانب مازالت في طور الدراسة وتحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي ، فعلى الرغم من مرور قرنين على نشوء علم آثار بلاد الرافدين الذي أرسته عشرات البعثات التنقيبية التي قدمت من جميع أنحاء العالم فضلا عن البعثات التنقيبية المحلية إلا أن هذا العلم مازال يخطو خطواته الأولى ، فأمامه شوط كبير قبل أن يلم بجميع جوانب وتفاصيل حضارة بلاد الرافدين .

لقد عرضنا في هذا المؤلف قضايا ومواضيع كثيرة : بعضها ذات صفة إشكالية كالتطرق لما تتعرض له الآثار العراقية من مخاطر وما يجب فعله لحمايتها ، وإشكالية التاريخ العيلامي وعلاقته بحضارة بلاد الرافدين ، وتاريخ السلالة الكشية وما يجر من تجاهل لها من قبل المؤرخين العراقيين ، وبعضها الآخر ذات صفة علمية أي دراسة بعض الجوانب التي وجدنا أنها لم تلق اهتماما كافيا من الباحثين ، آملين التوفيق .

الباحث

أ.م.د باسم محمد حبيب

آثار حضارة وادي الرافدين وما يجب عمله لحمايتها .

قد يستغرب البعض فقر حضارة وادي الرافدين من ناحية وجود الآثار الشاخصة من قصور ومعابد وسدود ومسارح وبيوت .. الخ ، فهذا شيء طبيعي بالنظر لحجم السرقات التي طالت آثار هذه الحضارة والتخريب الذي استهدف الكثير من مواقعها عبر مختلف المراحل الزمنية ، إذ عمد سكان المدن والقرى المجاورة لتلك المواقع الأثرية إلى استخدام طابوقها في بناء المنازل والبنايات الأخرى بحيث خربت نتيجة ذلك العديد من البنايات الشاخصة وسلبت الكثير من اللقى و الأدوات التي تعود ملكيتها للسكان القدماء ، الأمر الذي لفت انتباه (هيغل) الفيلسوف الألماني الكبير فأشار إلى ذلك في كتاباته عادا ما يحصل لتلك الآثار على انه جزء من منطق من لا يعي دورة التاريخ [١].

وبالتالي ونتيجة لهذا التخريب المستمر اختفت الكثير من الشواخص الأثرية وأتلفت شواخص أخرى بحيث لم نعد نجد من تلك الآثار الكثيرة إلا بعض النتف المنتشرة هنا أو هناك [٢]، كما هو الحال مع زقورة أور وملوية سامراء ومدينة عقرقوف وآثار الحضر ، فاختفاء كثير من الآثار التي تميزت بسمعتها التاريخية كـ: جنائن بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع وبرج بابل ، أضر كثيرا بسمعة العراق الأثرية و السياحية ، وحتى استحضار التاريخ الرافديني في الفن فهو لم يكن بالمستوى الذي يتماشى مع أهمية هذه الحضارة ومكانتها التاريخية الكبيرة ، فسينما هوليود لم تعد تعبأ بالرموز الرافدينية التي لم يبقى من لمعانها الشيء الكثير وولت وجهها شطر الحضارة الفرعونية الغنية بالآثار والسياحة ، إذ أدى توجهها هذا إلى أنتاج روائع حاكت إلى حد ما الحياة المصرية القديمة وعرضت بشكل درامي الكثير من قيمها وأعرافها ، الأمر الذي زاد أكثر من شهرة هذه الحضارة ومن سمعتها السياحية الكبيرة ، وهذا ما لم يحصل مع حضارة وادي الرافدين التي تمتاز عن سواها بالكثير من المميزات أهمها الأصالة والقدم الزمني ، إذ تعد حضارة وادي الرافدين بحسب معظم المؤرخين المتخصصين باكورة الحضارات البشرية الناضجة ، بل و الجذر الأقدم للحضارة العالمية الحديثة ، إذ عدها المؤرخ (جان بوتيريو) أقدم أسلافنا البعيدين على الخط السلالي المباشر [٣]، أما المؤرخ (صوموئيل هنتنغتون) صاحب

---

[١] ورد ذلك في كتابه (محاضرات في فلسفة التاريخ) نقلا عن : الهنداوي ، حسين ، هيغل وأهل الحالة ، مقال منشور في الحوار المتمدن على الرابط : https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=18553 في ٦ |٥ \ ٢٠٢٢ .

[٢] كيبرا ، أدوارد ، كتبوا على الطين ، ترجمة : محمود حسين الأمين ، (بغداد) ، ص ٩ .

[٣] بوتيرو ، جان ، بلاد الرافدين – الكتابة – العقل – الآلهة ، ترجمة : الأب البير أبونا ، (بغداد ، ١٩٩٠) ، ص ٤٤ .

نظرية صدام الحضارات فقد وضع في كتابه الموسوم (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي) مخططا لأصول الحضارة الأوربية مثلت فيه حضارة بلاد الرافدين نهاية سلسلة الأصول ، عادا حضارة وادي الرافدين أقدم مساهم في نشوء هذه الحضارة [٤]، وهذا ما أكده أيضا عالم المسماريات الشهير (صوموئيل كريمر) في كتابه المهم (التاريخ بدا في سومر) والذي تضمن معلومات مهمة عن أهم الإسهامات الرافدينية في مجال الحضارة البشرية ، عادا أن معظم هذه المنتجات الحضارية نتجت في الأصل من جذور رافدينية [٥]، كما هو الحال مع الكتابة المسمارية التي عدها المتخصصون أقدم الأنظمة الكتابية التي عرفها البشر ، ما جعلها سببا في ظهور الكتابة في أماكن أخرى سواء أكان ذلك من خلال تقليدها بشكل مباشر أو بإستلهام فكرتها أي فكرة الكتابة [٥]، وقد وصل تقييم حضارة بلاد الرافدين حد وضعها واحدة من ستة حضارات أصيلة نشأت على الأرض ، كما أشار إلى ذلك المؤرخ الشهير (ارنولد توينبي) في كتابه دراسة التاريخ [٦]، ولأن الآثار التي تقدمها هذه الحضارات تعطي أقدم المعلومات عن أسلافنا الذين عاشوا في تلك العصور الغابرة ، فقد دفع ذلك الدول التي تضم أرضها مواقع تلك الحضارات إلى الاهتمام بآثارها وتوفير الحماية الملائمة لها لتكون شاهدة على كفاح الناس في تلك الأزمان الغابرة وما عانوه من صعوبات وهم يؤسسون لحياة سعيدة لأبنائهم وأحفادهم .

وهذا ما لمسناه في الجهود التي تبذلها مصر على سبيل المثال، فمصر التي تمتلك حضارة مهمة تقدم أفضل مثال لنا على هذا النوع من الاهتمام، إذ تشمخ بكل زهو أثارها الرائعة سواء في مواقعها الآمنة أو في المتاحف المختلفة والشيء نفسه يحصل في البلدان الأخرى كالصين والهند والمكسيك واليونان وايطاليا وغيرها .

على الضد من ذلك يحصل لآثار العراق التي تواجه ومنذ زمن طويل عمليات تهريب وتخريب شملت معظم مواقع هذه الحضارة المنتشرة على عموم أرض العراق ، إذ تسرق يوميا الكثير من القطع الأثرية ، وقد زاد الأمر سوءا بعد تدهور الوضع الأمني وضعف مؤسسات الدولة ، الأمر الذي جعل آثار العراق تواجه مخاطر مستمرة وتنذر بحصول مآسي على شاكلة نهب المتحف العراقي في نيسان عام ٢٠٠٣ التي عدها المختصون الكارثة الأثرية الأكبر في تاريخ العالم [٧]،

---

[٤] هنتنغتون ، صوموئيل ، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، ترجمة : مالك عبيد أبو شهيوة وحمود محمد خلف ، (مصراتة ، ١٩٩٩) ، ص ١١٦ .

[٥] ينظر : كريمر ، صموئيل ، من ألواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، (بغداد) .

[٥] بوتيرو ، المصدر السابق ، ص ٩٣

[٦] توينبي ، أرنولد ، بحث في التاريخ ، ترجمة : طه باقر ، (بيروت ، ٢٠١٤) ، ص ١١١ .

[٧] نقلا عن محاضرة في بيت الحكمة بعنوان : سرقة الآثار العراقية عبر التاريخ على الرابط : http://www.baytalhikma.iq/News_Details.php?ID=783 في ٧ | ٥| ٢٠٢٢ .

وللأسف لا يمكننا أن نعول على الإجراءات التي تتخذها السلطات العراقية في هذا المجال ، فهذه الإجراءات أثبتت عقمها أكثر من مرة ، وخير دليل على ذلك تواصل عمليات نهب الآثار وبشهادة الأجهزة الأمنية التي تضبط أحيانا بعض الآثار المسروقة والمعدة للتهريب ، خصوصا وان معظم المواقع الأثرية العراقية بلا حماية وبعيدة عن اهتمام الدوائر المعنية التي لم تقم بما يكفي لحماية حتى الآثار المسجلة ، والأدلة على ذلك كثيرة أبرزها : تقاعسها عن حماية آثار بابل التي تعرضت للعبث من قبل القطعات الأجنبية التي استوطنتها لأمد طويل ، ولم تقم بأي دور لدفع تلك القوات لترك تلك الآثار على الرغم من أهميتها العالمية ، الأمر الذي نتجت عنه أضرار كبيرة فصلتها تقارير الخبراء الأجانب وبالذات بعثة بريطانية أرسلت لهذا الغرض [٨]، لكن ليس هذا كل شيء ، فآثار العراق مهددة بالفناء ، وربما لن يمر وقت طويل حتى تتحول ارض العراق إلى أرضا قفرا ليس فيها الكثير من الشواخص الأثرية ، و ما لم تسارع الأمم المتحدة والهيئات الدولية لمد يد المساعدة ووضع حد لهذا الأمر فربما نشهد عاجلا أم أجلا إنقراض الآثار العراقية .

إما الحلول التي يمكن اعتمادها في هذا الشأن فهي كثيرة ومتنوعة : كوضع المواقع الأثرية تحت الحماية الدولية ، أو وضع الآثار العراقية ضمن قائمة التراث العالمي ، أو تقديم مساعدات فنية للجانب العراقي من اجل إنشاء منظومة حماية أمينة غير قابلة للاختراق ، وبالطبع لا أريد أن اكرر هنا مقترحا قدمته ذات يوم في غمرة جرحنا الكبير بكارثة المتحف العراقي ، دعوت فيه إلى نقل الآثار العراقية إلى بلد أخر لتكون بمأمن من المخاطر ، فربما كان في ذلك الرأي بعض التسرع أو حتى التجني على الكفاءة والأمانة الوطنية ، لكن ما أود قوله هنا أن الآثار العراقية بحاجة إلى عملية إنقاذ حقيقية و إلى جهد يتجاوز المعمول به حاليا لأنه غير كاف ولم ينتج عنه شيء مهم ، فالآثار العراقية مازالت مهددة ومازالت تواجه التخريب والفناء يوميا .

---

[٨] نقلا عن تصريح لوزارة الثقافة والسياحة والآثار العراقية منشور على الرابط : https://altahreernews.com/22282/ في ٧|٥| ٢٠٢٢ .

حضارة عيلام .. هل هي حضارة مستقلة أم فرع من حضارة بلاد الرافدين ؟

منذ بدأ الحفريات الآثارية المنظمة وإكتشاف حضارة بلاد الرافدين والحضارات الأخرى في المنطقة قبل أكثر من مائتا سنة ، وكثير من الباحثين والآثاريين وعلماء الآشوريات يعدون حضارة عيلام إما ذات سمات محلية مستقلة عن حضارة بلاد الرافدين أو ذات مضامين زاكروسية (إيرانية) ، مستدلين على ذلك من بعض الجوانب التي ميزت حضارتهم عن حضارة بلاد الرافدين [١]، ووجود بعض مدنهم في المناطق الجبلية خارج السهل العيلامي (سهل الأحواز) الذي يعد من الناحية الطوبوغرافية جزءا من السهل الرسوبي ، وللأسف الشديد أسهم المؤرخون والآثاريون العراقيون في ترسيخ هذا الرأي لدوافع سياسية وأيديلوجية ، فعند نشوب الحرب العراقية الإيرانية في ثمانينات القرن الماضي أراد النظام آنذاك إعطاء النزاع العراقي - الإيراني الجاري آنذاك عمقا تاريخيا ، فجرى ربطه بتاريخ العراق القديم ، وهذا ما دعا لعد مملكة عيلام سلفا لإيران المعاصرة ، لإنه لا توجد في العصور القديمة أي دولة إيرانية تعاصر دول بلاد الرافدين ، أما الدول التي جاءت بعد ذلك وهي الأخمينية والساسانية فقد أخضعت العراق لحكمها ، ما جعلها غير ذا فائدة في طرح صراع كان العراق فيه ندا لإيران ، وليس هناك من يحقق هذا الأمر غير عيلام التي خضعت مرارا لدول بلاد الرافدين ، وهكذا ربطت عيلام بالتاريخ الإيراني إستجابة لرغبة سياسية وتكريسا لنظرية أيديلوجية [٢].

لكن آن الأوان لتغيير هذا الرأي غير العلمي والنظر إلى حضارة عيلام على أنها فرع من حضارة بلاد الرافدين وإن كانت تتضمن بعض الجوانب ذات السمة المحلية أو الزاكروسية (نسبة لجبال زاكروس) ، وذلك لإن حضارة عيلام كانت وعلى مدى قرون عدة جزءا من دول بلاد الرافدين ، بدءا من دولة أوروك السومرية في عصر أوروك في الألف الرابع قبل الميلاد ، مرورا بالحكم الأكدي وحكم سلالة أور الثالثة في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، وصولا إلى الحكم البابلي ثم الآشوري في الألفين الثاني والنصف الأول من الأول قبل الميلاد ، كذلك لها فن قريب الصلة من فنون بلاد الرافدين ، سواء أكانت فنون العمارة والنحت أم الفنون الموسيقية والغنائية ، فضلا عن إعتمادها الخط المسماري في معظم عصورها

---

[١] السعدي ، حسن محمد محيي الدين ، في تاريخ الشرق الادنى القديم ، ج٢ ، (اسكندرية ، ١٩٩٨) ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ .

[٢] ينظر : سليمان ، عامر ، بلاد عيلام علاقتها بالعراق القديم ، موسوعة العراق في مواجهة التحديات ج١ ، (بغداد ، ١٩٨٧) ، ص ١٦٧ . كما ورد في عدد مجلة آفاق عربية الصادر نهاية عام ١٩٨٠ دراسات كثيرة حول الصراع بين بلاد الرافدين وبلاد عيلام .

التاريخية بإستثناء مددا قصيرة استعملوا فيها خطوطا محلية لاسيما في المدة بين ١٣٠٠ و١١٠٠ ق.م التي بلغت فيها أوج قوتها وأزدهارها [٣]، ومما يدل على ذلك أيضا : تشابه بعض معتقداتها ونظمها و تقاليدها وقوانينها مع تلك التي لدى بلاد الرافدين ، علما أن إله عيلام الرئيس هو نفسه إله مدينة أور (ننا | سين) إله القمر ، إذ يسميه العيلاميون (أنشوششناك) (إن - سوسة - سن - ناك) ، أي (سيد سوسة سيدنا سين) ، كما بنو المعابد والزقورات على شاكلة معابد وزقورات بلاد الرافدين كما هو الحال مع زقورة (جوخة زنبيل) الشهيرة بالقرب من مدينة سوسة والموضوعة على لائحة التراث العالمي [٤].

أما سكان بلاد عيلام فيعتقد المؤرخون أن فيهم عنصرا رافدينيا سواء من السومريين أم الساميين ، وذلك إستنادا إلى أسماء الأعلام التي جرى التعرف عليها من النصوص العيلامية المسمارية ، إذ يعتقد أن أعدادهم ربما تصل إلى نصف أعداد العيلاميين في حين ينتمي النصف الثاني إلى أقوام عدة على رأسها الأقوام الجبلية القادمة من الجبال المحيطة بعيلام ، ونظرا لعدد الرافدينيين الكبير فإن هذا لم يؤثر فقط على شيوع اللغتين السومرية والأكدية وحسب بل وظهور دول أقل ما يقال عنها أنها من نمط الدول الرافدينية ، إذ رأينا ظهور دول عيلامية على غرار دول المدن السومرية كـ إنشان وأوان وسيماش ومراخاشي فضلا عن مدينة سوسة ذات الأهمية الدينية والسياسية ، أما بعد ذلك فتكونت مملكة أو ممالك عيلامية على غرار الممالك التي ظهرت في بلاد بابل بعد سقوط أور عام ٢٠٠٦ ق.م [٥].

والجدير بالذكر أن هذا هو رأي كثير من المؤرخين الإيرانيين وأهمهم الفردوسي الذي ربط في كتابه الضخم الشاهنامة بداية التاريخ الإيراني بالدولة البيشدادية الاسطورية [٦]، فيما ربطه آخرون بالدولة الميدية التي تأسست في حدود ٧٠٠ ق.م ، نظرا لكون الميديين من الأقوام الهندو اوربية حالهم حال الفرس الذين خلفوهم في السيطرة على إيران [٧]، وتأكيدا لذلك أقام شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي

---

[٣] مزيد من المعلومات عن ذلك ينظر : السعدي ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ – ٢٤٨ .

[٤] يتراوح عدد الزقو رات في الشرق الأدنى القديم ٣٢ زقورة ، منها ٢٨ من العراق القديم ، و ٤ في إيران أهمها زقورتا أور
وأوروك ، وزقورة عقرقوف وتشوغا زنبيل ، حول ذلك ينظر : التونسي ، علا ، العمارة بالطين واللبن في المشرق العربي القديم
(سورية والعراق) خلال العصور التاريخية الباكرة (نهاية الألف الرابع –ا لألف الأول ق.م) ، مجلة دراسات تاريخية – العراق ، العدد ١٣٩ ، ٢٠١٩ ، ص ٥٣ .

[٥] حبيب ، باسم محمد ، أوروك : نظرة إلى أسباب وعوامل توسعها السياسي والاقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد ، مجلة كلية التربية – جامعة واسط ، (نيسان ، ٢٠١٩) ، ص ٤٩٧ .

[٦] الفردوسي ، أبو القاسم ، الشاهنامة ، ترجمة : الفتح بن علي البنداري ، تحقيق : عبد الوهاب عزام ، ج ١ ، (مصر ، ١٩٩٣) ، ص ١٣ وما بعدها .

[٧] السعدي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

إحتفالية ضخمة في عام ١٩٧١ بمناسبة مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الحكم الملكي في إيران ، أي من سيطرة الدولة الأخمينية على بابل (٥٣٩ – ٣٣٠ ق.م) ، وهذا دليل على أن كثير من المؤرخين الإيرانيين يربطون حضارة عيلام بحضارة بلاد الرافدين على الرغم من أنها موجودة حاليا ضمن خارطة إيران السياسية ، فالدراسات التاريخية لا علاقة لها بالحدود بين الدول لأنها تتناول عصورا سبقت تشكل الدول ، لاسيما وإن حضارة بلاد الرافدين هي حضارة يمتد إطارها الجغرافي ما بين وسط الأناضول شمالا إلى الخليج العربي جنوبا ومن أقاصي إيران شرقا إلى الساحل السوري غربا .

أن حضارة عيلام ليست حضارة ثانوية بل هي حضارة مهمة وكبيرة ، فهي تمتاز على غيرها بأمور عدة أهمها : السبق التاريخي ، إذ تعود حضارة عيلام إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ، أي إلى العصر المسمى بعصر أوروك الوسيط الذي يقابل عصر سوسة الأول في تسلسل العصور الحضارية لمنطقة عيلام ، وفي هذا العصر ظهرت كثير من المنجزات العيلامية المهمة كالأواني الفخارية المنقوشة بنقوش بديعة والمنحوتات الجميلة والأختام الأسطوانية التي يرجح المؤرخون أنها ظهرت في عيلام قبل ظهورها في بلاد الرافدين ، إذ أكد العثور على نماذج من هذه الأختام في مصر والسند إلى سعة العلاقات التجارية لبلاد عيلام و إلى إمتدادها إلى مناطق بعيدة ، لكن عيلام دخلت مبكرا في الفضاء الحضاري الرافديني ، إذ تشير الأدلة الأثرية إلى حصول تأثيرات رافدينية كبيرة في مجالات عدة أهمها : ظهور نظام رقمي شبيه بالنظام الرقمي الرافديني ، وإختراع الكتابة التي زامنت أو تلت بقليل إختراع الكتابة الرافدينية ، فضلا عن تأثيرات أخرى في النحت والعمارة والإدارة وما إلى ذلك ، ويرى بعض المؤرخين أن عيلام خضعت على الأرجح لسيطرة أوروك السياسية في العصر المسمى بعصر أوروك الأخير (٣٥٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م) المضاهي لعصر سوسة الثاني قبل أن تعود إلى الإستقلال من جديد في العصر التالي عصر جمدة نصر (٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م) ، ومن ثم فهي حضارة ذات صلات عميقة وقوية بحضارة بلاد الرافدين [٨].

[٨] حبيب ، المصدر السابق ، ٤٩٧ – ٤٩٨ .

ملحمة جلجامش في الموروث الشعبي العراقي

تعد ملحمة جلجامش أهم أثر أدبي انتجته حضارة بلاد الرافدين [١]، ليس لقدمها مقارنة بنظيراتها من الملاحم الأخرى وحسب ، بل ولمضمونها الذي أتسم بالعمق والشمول أيضا ، ومن ذلك تناولها لأحدى المسائل المهمة التي أهتم الفكر الإنساني بها عامة و الفكر العراقي القديم خاصة ، ألا وهي مسألة الخلود التي شغلت تفكير الإنسان منذ أمد بعيد ، فكان مما عرضه مضمونها : أن الإنسان مهما أمتلك من أسباب النعمة والنفوذ والثراء ، ومهما أمتلك من سلطة وقوة و جبروت ، فأنه يبقى ذلك الكائن الضعيف الذي مآله القبر ، وبالتالي لا مناص من البحث عن نوع آخر من الخلود يكون بمثابة تعويض وعزاء للإنسان من الخلود المادي الذي حرم منه ، ونظرا لشهرة الملحمة ، فقد تم نسخها مرات عدة ، وتمت ترجمتها إلى اكثر من لغة ، كما تناقلتها الشفاه جيلا بعد جيل وصولا إلى جيلنا الحاضر .

لقد بقيت أصداء هذه الملحمة ماثلة في وجدان سكان المنطقة التي أنتجتها ، إذ بقيت تقاوم عوادي الزمن على الرغم من مرور مدة طويلة على انهيار حضارة بلاد الرافدين ، ومن أهم ما بقي في الموروث الشعبي من أصداء هذه الملحمة ما يأتي :

١- من الألفاظ المتداولة في حياتنا اليومية ، لفظة (ملج وركة) التي تطلق على الأطفال أو الفتيان المشاغبين والمشاكسين ، وقد سمع الباحث هذه العبارة من كبار السن وهم يطلقونها على من يجدونه مشاكسا ومتمردا ، والملاحظ ان شيوع هذه اللفظة قاصر على المنطقة الجنوبية من العراق ، أي المنطقة التي عاش فيها ملك الوركاء المشاكس (جلجامش) ، والذي عرف عنه الطيش والنزق و حب المغامرة ، و لذلك بقيت أصداء مغامراته ماثلة في أذهان الناس جيلا بعد جيل وصولا إلى عصرنا الحاضر .

٢- كما تشيع في مناطقنا وأوساطنا الشعبية ، المقولة المأثورة (ثلثين الولد على خالة) ، ويبدو ان أصل هذه المقولة مرتبط بنص ملحمة جلجامش ، الذي أشار إلى ان ثلثي جسد جلجامش من مادة الآلهة وثلثه الآخر من مادة البشر ، فأمه البقرة الجليلة (ننسون) من صنف الآلهة ، أما أبوه فمن البشر [٢]، ولذلك امتاز سلوكه بالتعالي والعجرفة والرغبة في تحدي الصعوبات وأجتياز المخاطر ، غير مبال بما قد يسببه له ذلك من ضرر أو ألم ، كما لم يقنع بكونه بشر مقدر له ان يموت بل عمل

---

[١] حول أهمية ملحمة جلجامش ينظر : باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٤١ – ٦٨ .

[٢] مكاوي ، عبد الغفار ، ملحمة جلجامش ، (القاهرة ، ٢٠٠٨) ، ص ٦٦ .

جاهدا من اجل بلوغ الخلود ، معتقدا انه بحكم صلته بالآلهة يستحق ان يحظى بالخلود مثلها ، لكن ثلثه البشري كان اكثر فاعلية من ثلثيه الإلهيين فآل مجهوده وكفاحه إلى الفشل ، ليدرك أخيرا أن الموت امر لا مفر منه وان السعادة التي يجب ان ينشدها ، تكمن في الفعل الطيب الحسن الذي يبقى في ذاكرة الناس أمدا طويلا ، ومن ابرز ما طرحه هذا الأمر : أن الأبن جسديا ينتمي لأمه اكثر من انتمائه لأبيه إلا انه قد يرث من ابيه اكثر مما يرث من أمه .

٣- تضمنت ملحمة جلجامش ثيمة مهمة هي ثيمة البحث عن الخلود ، فحضارة بلاد الرافدين التي لا تؤمن بالحساب ووصول الإنسان إلى عالمي النعيم والجحيم ، جعلت الإنسان مرتعب من مصيره ، فالموت هو نهاية مفجعة ومأساوية لأنه يجعل الارواح سجينة العالم الأسفل ، وهو عالم مقفر كئيب تعيش الأرواح فيه بسأم وملل ووحشة ، ولذلك طرحت الملحمة موضوع البحث عن الخلود وجعلته ثيمتها الأساسية ، فبعد فجيعة جلجامش بصديقه (انكيدو) وخشيته من أن يلقى نفس مصيره ، عزم على السفر بحثا عن الخلود ، وقد عانى بسفره كثيرا من الأهوال والصعوبات ، قبل أن يلتقي بجده بطل الطوفان (أوتو – نابشتم) الذي اكد له إستحالة حصوله على الخلود ، ثم سرد له قصة الطوفان التي مكنته من نيل الخلود بعد ان شعرت الآلهة بالذنب من محاولتها إبادة البشر ، لكنه لم يترك جلجامش يعود خالي الوفاض ، بل دله على نبتة تساعده على تجديد حياته توجد في اعماق البحر ، إذ علمه طريقة الوصول إليها وذلك بالغوص على طريقة جامعي اللؤلؤ ، إلا أنه لم يهنأ بها بعد أن سلبته الأفعى النبتة في غفلة منه ، فكان الفشل مآل رحلته التي خلص منها إلى أن الموت أمر لا مناص منه [٣]، وفي موروثنا الشعبي كثيرا من القصص المماثلة التي تؤكد ارتباطها بمتن الملحمة ، منها قصة سمعها الباحث من احد الرواة ذكر فيها : " أن احد الرجال ، قرر ذات يوم السفر بحثا عن ارض لا يصلها الموت ، وقد ساح في بلاد الله العريضة بحثا عن تلك الأرض ، فكان في كل مرة يصل فيها إلى بلدة يسأل ناسها : هل عندكم موت ؟ فيجيبوه نعم عندنا ، فيصيبه الإحباط لكنه لا يستسلم بل يستمر بالبحث عسى أن يجد مبتغاه ، وذات يوم وصل إلى بلدة من البلدات ، فسأل سؤاله التقليدي ، فتفاجأ بأن ابلغ بأن هذه البلدة لا يصل الموت إليها ، فسألهم : ولكن اين يذهب الناس إذا طعنوا في السن ؟ فجاءه الجواب : يسمعون مناديا بأسمائهم ينادي من مكان بعيد ، فيذهبون إليه ولا يرجعون ، فقال أذن سأسكن هذه البلدة ، ولو نوديت من قبل ذلك الرجل المجهول ، سأتجاهل ندائه ، وبعد مدة من الزمن ، ناداه احدهم من مكان بعيد ، فتجاهل نداءه ، لكن المنادي أستمر بالمناداة عليه حتى اضطره لتلبية ندائه ، ولم يعد بعد ذلك " ان هذه القصة كما هو ملاحظ من

[٣] للإطلاع على هذه الأحداث ينظر : مكاوي ، المصدر السابق ، ص ٦٦ – ٢٢١ .

موضوعها تنتمي إلى فكر حضارة بلاد الرافدين ، وهي شبيهة إلى حد ما ، بسفر جلجامش بحثا عن الخلود .

٤- وتضمنت الملحمة الأصول الأولى لما لدى الناس المعاصرين من اعتقاد بأهمية دعاء الأم وبإنه مما يستجاب له ، إذ يحرص الأبناء في مجتمعنا على سماع دعاء الأم قبل الإقدام على أي خطوة أو المباشرة بأي عمل ، وهو أمر نجد أصوله في الملحمة عندما عزم جلجامش على السفر إلى غابة الأرز ومقاتلة الوحش خمبابا الذي يحرسها ، إذ طلب من صديقه أنكيدو الذهاب معه لمقابلة أمه البقرة الجليلة ننسون لسماع نصحها ودعائها لأن ذلك مما يضمن لهما النصر والسلامة [٤].

٥- كما عرضت إحدى المقاطع الخاصة بجلجامش ، نزول انكيدو إلى العالم الأسفل لإستعادة قطعة ثمينة تعود لجلجامش ، وقد أسمعه جلجامش نصائح مهمة تمكنه من العودة بسلام ، لكن انكيدو لم يتقيد بها ، فبقي حبيس العالم الأسفل ، إلا أن جلجامش تمكن بطريقة ما من اخراج روح انكيدو ، للإستفسار منه عن أحوال العالم الأسفل ، فقص له معاناة الموتى في ذلك العالم الموحش الكئيب ، لا سيما اولئك الذين لم يخلفوا اولادا يقدمون لهم القرابين ، إذ عرض الحوار ان الموتى يجدون وضعا افضل كلما زاد عدد اولادهم [٥]، وهو ما يؤكد الاعتقاد بأن الموتى بحاجة إلى قرابين الأحياء حتى يبقوا في حال افضل ، والملاحظ ان هذا الاعتقاد شديد الشبه إلى حد بعيد بمعتقدات الناس في بلادنا في الوقت الحاضر ، إذ يواظب الأبناء على تقديم القرابين (الثواب) وتوجيهها إلى موتاهم ، معتقدين ان الموتى لن يجدوا الراحة بدونها ، وأنهم سيغضبون عليهم ويلعنونهم إذا قصروا عنهم بذلك ، وكلما كانت القرابين كثيرة كلما شعر الموتى بالرضا عن الأحياء ، وتتشابه هذه القصة مع قصص كثيرة في الموروث الشعبي العراقي ، فقد تهيأ للباحث أن يسمع قصة لها بعض الشبه مع رحلة انكيدو إلى العالم الأسفل ورد فيها : " ان رجلا حرم من الانجاب من زوجته الاولى ، فتزوج امرأة ثانية من اجل الحصول على مولود ، وقد تكلل مسعاه بالنجاح بعد أن حملت الزوجة الجديدة بأبن له ، فسره ذلك كثيرا ، وأخذ يهتم بالزوجة الحامل لكي يؤمن سلامة المولود ، فأثار ذلك غيرة الزوجة الاولى ، فدعت الله ان يرزقها بطفل مقابل ان تبيت في المقبرة ثلاثة أيام ، فكان لها ما ارادت ، لكن كان عليها ان تفي بنذرها ، فأخبرت زوجها بنذرها ورغبتها في أن تفي به ، فهاله ذلك لخشية الناس من المقابر التي يرون أنها تعج بالحيوانات والأشباح الغاضبة ، لكن بعد إلحاحها أخذها على مضض مع طفلها إلى المقبرة ، ثم عاد مسرعا قبل ان يحل الظلام ، وفي المساء جاءها شبح فارتعدت فرائصها وأصابها الرعب منه ، واخذت تذكر الله وتقرأ

---

[٤] مكاوي ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ .
[٥] باقر ، المصدر السابق ، ص ١٧٣ – ١٧٦ .

كثيرا من الادعية ، فناداها الشبح : من انا ، فواصلت ذكر الله وتلاوة الادعية ، ثم أجابته بكلمات مهذبة مدعومة بالدعاء له بالخير والهناء والبركة ، انك شبح لطيف جميل ، ثم سألها سؤال آخر : ماذا ألبس ؟ فذكرت الله ودعت له بالخير ثم أجابته بكلمات مشفوعة بالدعاء اللطيف : أنك تلبس رداءا جميلا موشى بالحرير والجواهر ، أي خلاف ما كان يلبس حقيقة ، فرماها بحجارة كبيرة لم تصبها ، ثم أخذ يكرر سؤاله وهي تكرر إجابتها مشفوعة بذكر الله والدعاء اللطيف ، فيرميها بحجارة لا تصبها بأذن الله ، حتى اقترب الصباح ، فخف غضب الشبح بعد ان لمس براءتها وطيبتها ، فنصحها بأن تقضي أيام نذرها الثلاث بالسكن مع أهل القبور ، وقد علمها طريقة الدخول إلى عالم القبور ، وذلك بمسك ذيل إحدى البقرات التي تمر بالقرب منها ، وقد قضت أيام نذرها ضيفة على سكان القبور ، ثم منحها الشبح كثيرا من المجوهرات والمعادن الكريمة ، وعندما عاد زوجها ، سر كثيرا بسلامتها ونجاتها مع طفلها ، وعاد بها إلى البيت فرحا مسرورا ، إلا أن ضرتها غارت منها ، فطلبت من الزوج إرسالها إلى المقبرة مع طفلها ، عسى ان تحظى بما حظيت به ضرتها ، فحاول زوجها عبثا اثنائها عن ذلك ، مبينا أن ما حصل لضرتها لا يمكن ان يحصل لها ، لاختلاف طباع كل منهما ، وقد حصل ما تنبأ به ، إذ ادى جشعها وسوء طباعها ، إلى اغضاب الشبح منها ، فأنهال عليها بالحجارة حتى قتلها مع طفلها " .

ان ما تؤكده السطور السابقة ، إن المعاني التي تتضمنها ملحمة جلجامش ، مازالت ماثلة في كثيرا من القصص والحكايات والعقائد وما إلى ذلك ، وهو دليل على وجود صلات حضارية وبشرية تربط ما بين الماضي والحاضر ، وأن التواصل بين الأجيال لم ينقطع على الرغم من طول المدة الزمنية .

يطلق على المكان الذي تذهب إليه الأرواح بعد افتراقها عن الجسد بالموت اللفظة السومرية (Kur - Nu - Gi) تقابلها اللفظة الأكدية (ersit - la - tari) ، ومعناها الحرفي ارض اللاعودة أي العالم الاسفل [١]، أما موقع هذا العالم فهو الفضاء التحتي (تحت الارض) المقابل للفضاء الفوقي (السماء) .

وتنتقل الارواح إلى هذا العالم الموحش الكئيب بحسب الميثولوجيا الرافدينية بعد دفنها في القبر الذي يمثل فتحة مؤدية إلى العالم الأسفل [٢]، ولكن هذا لا يعني ان القبر هو البوابة الوحيدة التي توصل ما بين عالم الأحياء وعالم الأموات بل هناك بوابات اخرى قد توجد عند كل مدينة [٣]، ومن هذه البوابات انتقل بعض الأحياء إليه سواء من البشر أو الآلهة ، كالإلهة إينانا (عشتار) ، وانكيدو رفيق جلجامش ، كما يوجد نهر لعله فاصل آخر بين عالم الأحياء وعالم الأموات ، وهو موجود في ميثولوجيا الكثير من الحضارات الاخرى كما هو الحال مع الحضارتين المصرية واليونانية ، ولا يمكن للموتى الوصول إلى مثواهم الأخير إلا بعد عبوره بقارب يقوده ربان هو احد موظفي العالم الأسفل ، وقد ورد خبر هذا النهر في اسطورة يتيمة تتعلق بنفي انليل (الإله القومي لبلاد سومر) إلى العالم الأسفل [٤]، وعندما يصل الميت إلى مثواه الأخير عليه ان يتخلص من كل متعلقات الحياة من ملابس وحلي ، أي يغدو عاريا تماما ، بل يتخلص حتى من جسده دلالة على ما يسببه الموت من فقدان للقوة والثروة ، وقد طبق هذا القانون حتى على الإلهة عشتار في نزولها إلى العالم الأسفل ، وبعد ان تستقر روح الميت في المكان المخصص لها في ذلك العالم ، لا يعود بإمكانها العودة إلا كشبح يخيف الاحياء ويسبب لهم الازعاج فيما إذا لم يقدموا له النذور التي يحيا من خلالها ، أما العودة الكاملة للحياة فلا يمكن ان تتحقق إلا بظرف استثنائي كما حصل مع الإلهة إينانا (Anana) عشتار ، ولكن حتى في هذه الحالة لابد من بديل يحل محل العائد للحياة ، وقد اختارت عشتار زوجها

---

[١] حنون ، نائل ، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٧٤ .
[٢] سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، (الموصل ، ١٩٩٣) ، ض ١٣٩ .
[٣] حنون ، المصدر السابق ، ص ١٨١ – ١٨٤ .
[٤] الشواف ، قاسم ، ديوان الأساطير ، الكتاب الأول ، (بيروت ، ١٩٩٦) ، ص ٤٥ .

دوموزي (Dumuzi) تموز ليكون بديلها للعالم الأسفل ، وهو ما تناولته اسطورة اخرى من اساطير بلاد الرافدين [٥] .

والعالم الأسفل لا يختلف عن العالمين الآخرين (العالم الأعلى أو العلوي) و (العالم الأرضي) في انه منظم على شكل دولة يرأسها الإله نركال وأسمه سومري الأصل (Ne - unu - gal) ، وزوجته إرش كي كال (Eresh - Ki - Gal) [٦]، يعاونهم سبعة من (الأنوناكي) وعدد آخر من آلهة السماء المنفيين إضافة الجالا (Gala) الذين يشبهون الحرس أو الشرطة ومهمتهم حفظ النظام في ذلك العالم [٧] ، ومن أوصافهم يتبين انهم ": لا يعرفون الطعام ولا الماء ، فهي لا تأكل طحينا مبثوثا ، ولا تشرب ماء مسكوبا (القربان) ، وكانت تأخذ الزوجة من حضن زوجها ، والطفل من صدر مرضعته [٨]، وهؤلاء هم الذين رافقوا إينانا (عشتار) عند خروجها من العالم الأسفل للإتيان ببديل لها ، وهم الذين قبضوا على زوجها دوموزي (تموز) بطلب منها .

أما الواقع الاقتصادي لهذا العالم فيختلف جذريا عن الواقع الاقتصادي للعالم الأرضي الذي يرتكز على مبدأ العمل ، فسكان هذا العالم ومعظمهم من الموتى لا يملكون القدرة على العمل فهم يعيشون حياة ساكنة كئيبة ، ولكنهم يحصلون على قوتهم من النذور والقرابين التي تصلهم من ذويهم وأقاربهم من الأحياء ، الذين يتوجب عليهم القيام بذلك ليس بدافع الوفاء للموتى وحسب بل وبدافع إتقاء شرهم وضررهم ، لأن الأموات فيما إذا لم تصلهم النذور والقرابين سوف يكونون مضطرين للخروج من العالم الأسفل ومهاجمة الأحياء والتسبب لهم بالكثير من الشرور والمصائب [٩]، وبالتالي فأن سكان هذا العالم يعتمدون كليا في معيشتهم على سكان العالم الأرضي حالهم حال سكان العالم العلوي .

وعند مقارنة اقتصاد هذا العالم مع اقتصاد العوالم المماثلة في الديانات الاخرى لا سيما الديانات التوحيدية نجد اختلافا كبيرا بين كل منهما ، ففي حين يقوم الإله الواحد الأحد في الأديان التوحيدية بتوفير الطعام والشراب وبقية مستلزمات الحياة بالخلق ، لا نجد مثل ذلك فيما يخص آلهة بلاد الرافدين التي تحتاج هي ذاتها إلى الطعام والشراب الذي يوفره بني البشر لها ، ولكن كيف يمكن لهذه الارواح الخروج من العالم الأسفل نظرا لما فيه من اسوار عالية وإستحكامات قوية ؟ ومن يضمن عودتهم

---

[٥] حول هذه الأسطورة انظر : علي ، فاضل عبد الواحد ، عشتار ومأساة تموز ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٨٦ – ص ٢٠٤ .
[٦] حنون ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ – ص ٢٠٦ .
[٧] المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ – ص ٢٢٠ .
[٨] علي ، فاضل عبد الواحد ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .
[٩] حنون ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

مرة اخرى ؟ لعل الجواب في أن قوانين العالم الأسفل تسمح للأرواح بالخروج وإزعاج الأحياء فيما إذا لم يفي الأخيرون بإلتزاماتهم نحوهم ، وقد يتم ذلك تحت مراقبة وإشراف موظفي العالم الأسفل منعا لأحتمال هروب الأموات .

هذا يدفعنا للتساؤل عن طبيعة هذا العالم الأسفل : هل هو دار للحساب (الثواب والعقاب) أم مجرد مأوى تلجأ إليه ارواح الأموات بعد ان تلفظها الحياة ؟ للإجابة نقول أن هناك من يعتقد بوجود مفهوم الثواب والعقاب في المعتقد الديني العراقي ، وبالنتيجة لا بد أن تبرز ارواح سعيدة وارواح تعيسة تبعا لنتيجة المقاضاة التي يواجهها الميت عند دخوله إلى العالم الأسفل ، لكن هذا الرأي يفتقر إلى الأدلة الكافية هذا أن لم تكن هناك ادلة تنقضه ، ومنها : ان النصوص الدينية لم تشر ابدا إلى ما يشبه النعيم والجحيم الأخروي الذي نعرفه من الديانات الاخرى كالديانة المصرية القديمة والديانات التوحيدية ، أما وجود قضاة العالم الأسفل فليس الغرض منه محاسبة الأموات على سلوكهم اثناء الحياة وإنما على سلوكهم عند موتهم أي خلال اقامتهم في العالم الأسفل كالتقيد بالقوانين وما إلى ذلك [١٠]، أما كون العالم الأسفل ملجأً أو مأوى للأموات فتنفيه حقيقة فقدانهم لحرية الخروج من هذا العالم ، وبالتالي فأن هذا العالم ليس سوى سجن تودع فيه ارواح الموتى حتى لا تكون قادرة على ازعاج الأحياء ومنعهم من ممارسة دورهم تجاه الآلهة (خدمة الآلهة) .

[١٠] المصدر نفسه ، ص ١٣٢ – ص ١٦٥ .

هل يمكن للموتى العودة إلى الحياة في فكر بلاد الرافدين ؟

من أهم سمات فكر حضارة بلاد الرافدين غلبة الطابع المادي على متونه الفكرية ونظرته العدمية إلى الحياة ، لاسيما إدراكه قصر الحياة وأبدية الموت ، فهو بخلاف فكر كثير من الحضارات الأخرى لا يرى في الموت نهاية لحياة وبداية حياة جديدة ، بل نهاية ليس بعدها أي بداية أخرى ، لذا سمي عالم اللاعودة [١]، لكن مع ذلك هناك رؤية يمكن أن نستشفها من الأسطورة المسماة نزول إنانا (عشتار) إلى العالم الأسفل (عالم الموتى) ، تعرض إمكانية العودة إلى الحياة فيما إذا تدخل كائن يملك القدرة على إعادتها ، مع أن هذا الامر ليس واضحا تماما لعدم تحققه فيما يخص البشر في الأسطورة التي تعرض إمكانيته ، لكن يمكن عده على ضوء ما سنعرضه من الأدلة أمرا ممكنا أو نظريا .

ولنبدأ من أسطورة نزول إنانا (عشتار) إلى العالم الأسفل التي لا يجب النظر إليها على أنها مجرد أسطورة تعرض طيش إنانا (عشتار) وجموحها ، ومن ثم عرض ما تسبب به غرورها من مشاكل بيئية وكوارث كونية خطيرة [٢]، وإنما أيضا بعرضها لنظرة حضارة بلاد الرافدين لموضوعة الحياة والموت التي مثلت هاجسا كبيرا لها ، لكن ما نلاحظه أن هذه الأسطورة لم تفصح عن السبب الذي دفع هذه الإلهة للقيام بمغامرتها الخطيرة والمرعبة إلى العالم الأسفل : فهل أرادت فعلا إعادة إحياء الموتى وإنقاذهم من عالمهم البائس عالم الظلمة والجوع والرعب و الخوف ؟ أم أن هدفها كان فقط إغاضة شقيقتها إيرشيشكال ملكة العالم الأسفل والإطاحة بهيمنتها و جبروتها الذي يتوافق مع شخصية إنانا (عشتار) الغيورة والجامحة ، لكن ليس هذا وحده ما يثير الإلتباس ويحتاج إلى تفسير في هذه الأسطورة الملغزة بل وكذلك الطريقة التي أرادت بها هذه الإلهة إستغلال الموتى في حربها ضد شقيقتها إيرشيشكال أو تخليصهم من واقع البائس أيا كان هدفها من ذلك ، لإن الموتى في فكر حضارة بلاد الرافدين مجرد أرواح بلا أجساد ، وهم بالتالي ليست لديهم القدرة على فعل أي شيء خيرا كان أم شرا عدى إرعاب الأحياء أو إخافتهم [٣] ، إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب مناقشة الحدث الأهم في نزول إنانا (عشتار) إلى العالم الأسفل وهو وصولها إلى ذلك العالم المظلم الكئيب [٤]، إذ تجمع حولها فور وصولها

---

[١] باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٤٢ – ٤٣ .
[٢] حبيب ، باسم محمد ، الفكر الاقتصادي العراقي القديم في ضوء بعض النصوص الأدبية ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية – جامعة واسط ، ٢٠١٦ ، ص ٤٣ .
[٣] علي ، فاضل عبد الواحد ، من الواح سومر إلى التوراة ، (بغداد ، ١٩٨٩) ، ص ٣٤١ .
[٤] للإطلاع على أسطورة نزول عشتار إلى العالم الأسفل ينظر : علي ، فاضل عبد الواحد ، عشتار ومأساة تموز ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٨٦ – ٢٠٠٤ .

إليه أعداد كبيرة من أرواح الموتى الذي يفسره البعض بتوق هذه الأرواح لرؤية الأحياء أو الإستمتاع برؤية شكل الجسد الذي فقدوه ، لكن هل هذا هو السبب الوحيد لوصولهم بكثرة إلى مكان هذه الإلهة ؟ أم أن هناك سبب أكثر أهمية ربما تناغم مع ذلك السبب ، وهو تمكن إنانا (عشتار) من جمعهم بطريقة ما أو إستغلال فضولهم لتحقيق هدفها وهو الإلتقاء بأكبر عدد منهم ، وبما أن هدف (إنانا (عشتار) الرئيس هو محاربة شقيقتها إيرشيشكال والإطاحة بجبروتها فإن خطوتها هذه لن تكون مفيدة لوحدها بسبب عجز الأرواح عن فعل أي شيء ، ومن ثم فهي بالتأكيد تملك القدرة على إعادة الأجساد إلى الأرواح بفعل قدرة الإحياء التي تمتلكها والتي تتميز بها عن سائر الآلهة ، وهنا لابد لنا من عرض تساؤل آخر قبل أن نختم كلامنا عن هذه الأسطورة الفريدة من بين الأساطير الأخرى : وهو كيف تمكنت إيرشيشكال من إماتت إنانا (عشتار) وهي تملك قدرة الإحياء ؟ للإجابة هو لإن شقيقتها إيرشيشكال كان تملك قدرة مضادة لها وهي قدرة الإماتة ، فضلا عن أنها قد أستغلت خسارة (إنانا) عشتار لجزء من طاقتها في محاولتها إعادة إحياء الأموات ، لذا سهل عليها القضاء عليها ، وهذا ما يفسر سماح إيرشيشكال لشقيقتها بلقاء الموتى فور وصولها إلى العالم الأسفل على الرغم من معرفتها بهدف شقيقتها من قدومها إلى هذا المكان الخطير .

نستخلص من ذلك أن حضارة بلاد الرافدين لا تنفي بشكل تام إمكانية عودة الموتى إلى الحياة الجسدية فيما إذا توافرت ظروف خاصة كأتفاق الأختين إنانا (عشتار) وأيرشيشكال اللتان لكل منهما شخصية مناقضة للأخرى ، الأمر الذي يجعل حصول ذلك واقعا من المستحيلات ، ومن ثم لم تشر حضارة بلاد الرافدين في أي نص من نصوصها إلى حصول أي عودة للحياة بعد الموت ، إذ لم ينحصر ذلك بالبشر وحسب ، بل وجميع الكائنات الأخرى بما في ذلك الآلهة والشياطين ذات القدرات الخارقة .

ما يميز النظام الأخلاقي في العراق القديم إنه مستقى بشكل مباشر من التجربة الحياتية للإنسان ، لذا نجد أن الحكماء لم يروا أي ضرورة لربطه بأسانيد و مفاهيم دينية ، ذلك أن العراقي القديم لم يعزل الدين عن الحياة كما فعلت الكثير من الأديان الأخرى ، بل جعله رديفا وداعما لها ، أي أن الأولوية فيه لحاجات الإنسان وشؤونه ، وهذا ما جعل كثير من الباحثين يصفون النظام الأخلاقي العراقي القديم بالواقعية ، ومن هؤلاء (صوموئيل كريمر) الذي قال عن السومريين (وهم أقدم الأقوام العراقية القديمة) ، أنهم يمتازون بروعة أفكارهم ومثلهم وقيمهم ، مبينا أيضا أنهم " كانوا واضحي النظر متزني العقل وكانوا ينظرون إلى الحياة نظرة واقعية " [١] وهذا ما يصح على الأقوام الأخرى التي شاركتهم السكن في هذه البلاد ، فهذه الأقوام لم تختلف نظرتها - على الأرجح - عن نظرة السومريين ، وذلك لسبب بسيط وهي أنها عاشت في البيئة نفسها التي عاش فيها السومريين ، وتبنت المفاهيم والقيم الحضارية ذاتها ، ما جعل نظمها وقيمها وأفكارها إمتداد لما كان لدى السومريين من نظم وقيم وأفكار ، أما سبب هذه النظرة الأخلاقية فربطها (الدكتور حسن فاضل جواد) مع " واقع الإنسان العراقي القديم المحسوس والمنظور واتصاله بتجربة الإنسان اليومية المنقولة عبر مآثر الحكمة الأخلاقية إلى الأجيال القادمة المتعاقبة " [٢]، أما أثر الدين في تكريس القيم الأخلاقية ، فيمكن أن يكون أثرا داعما أو غير مباشر ، لإن العراقي القديم لا يعد الآلهة مصدرا للقيم النبيلة وحسب بل ومصدرا للخطايا والشرور أيضا ، فهي مصدرا " للخير والشر والفضيلة والرذيلة والعفة والفجور والعدالة والجور والصدق والكذب والحق والباطل والإخلاص والخيانة وعموما فهي مصدر المتناقضات الأخلاقية كلها " [٣]، ومن ثم لا يمكن أن تكون الأخلاق في نظر العراقي القديم من نتاج الآلهة بل من صنع الإنسان ، لأنه لم يتخذ الآلهة مثالا له في صناعة نظامه الأخلاقي ، بل أعتمد على تجربته الحسية في تعامله مع الأشياء أو مع نظرائه من البشر ، فأدرك بنفسه ما يضره وما ينفعه ، وما يصلح أن يكون قيما أخلاقية يلتزم بها الجميع لكي يحيوا حياة صالحة خالية من المشاكل ، أما ما نستدل به على ذلك فيمكن أن نستقيه من بعض الأساطير التي عرضت أهمية الأخلاق في الواقع الحياتي ، ليس بوصفها أوامر مباشرة من الآلهة بل بوصفها حاجة حياتية لا غنى

---

[١] كريمر ، صوموئيل ، السومريون : أحوالهم – عاداتهم – تقاليدهم ، ترجمة : فيصل الوائلي ، (الكويت ، ١٩٧٣) ، ص ٤ .

[٢] جواد ، حسين فاضل ، الأخلاق في الفكر العراقي القديم ، (بغداد ، ١٩٩٩) ، ص ١٣٠ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

للإنسان عنها ، ولو تمعنا في أسطورة النسر والأفعى لأدركنا الطريقة التي أمن بها الإنسان بقيمه الأخلاقية وضرورتها لواقعه الحياتي ، فتعاون النسر والأفعى – بحسب ما عرضت الأسطورة – لم يكن مبعثه الفطرة السليمة بقدر الفائدة المتحققة من هذا التعاون ، إذ أنه يضمن السلامة لأبنائهما بعكس ما إذا كانا عدوين ، لذا ما أن أنتفت الفائدة من تعاونهما حتى تحولا إلى خصمين لدودين ، إذ وجد النسر بعد أن كسى الريش أجسام أفراخه أنه غدى قادرا على أكل صغار الأفعى من دون أن يكون بمقدور الأفعى أكل أولاده كونهم أصبحوا قادرين على الطيران [٤]، وهذا ما أبرزته ملحمة جلجامش التي عرضت أن لكل مجتمع بواعث أخلاقية خاصة به وإن تفضيل أخلاقيات مجتمع ما على آخر لا تتم إلا بتقدير مقدار الفائدة التي يجنيها الإنسان منهما ، فـ (انكيدو) الذي كان سعيدا بعيشته مع الحيوانات أدرك بعد إتصاله بالبشر أن حياته تلك لم تكن ملبية لرغباته أو أنها متناسبة مع ما يمتلكه من مؤهلات ، لذا انقلب على قيمه الحيوانية بعد أن أدرك أن حياته في مجتمع الإنسان تجلب له فوائد أكبر وتعرض له فرص أكثر للحصول على المكانة والمنزلة ، ما جعله راغبا عن القيم التي كان يتبناها في عيشته البرية لصالح القيم التي وجدها في المدنية التي قطنها بعد ذلك وهي مدينة أوروك (الوركاء) [٥]، وهذا ما نلمسه أيضا من الحكم والوصايا التي زخر بها أدب بلاد الرافدين ، فقد كانت أبعد ما تكون عن المثالية التي نجدها في حكم ووصايا أنتجتها حضارات أخرى ، فالحكمة التي تقول : " لا تفعل الشر وعندئذ لا تقاسي ألما دائما " [٦]، تعني أن الشر يولد الشر ، لذا لا يمكن تلافي الشر الذي تواجهه إلا بالتوقف عن اقترافه ضد الآخرين لكي لا يضمروا لك الشر ، وهذا ما يتضح أيضا من قول الحكيم : " الجائع يقتحم البناية (حتى لو كانت مبنية) من الطابوق المفخور " [٧]، فهو هنا يحذر من إهمال رعاية الفقراء وإطعام الجوعى لأن ذلك مدعاة لإنتشار الجريمة بشتى أشكالها وصورها ، كما تتضح الواقعية في ما قدمه الحكيم من نصيحة لمن يرغب بالزواج وإنجاب الأولاد ، عندما قال : " تزوج إمرأة طبقا لرغبتك وأنجب ولدا بحسب مشتهى قلبك " [٨] ، أما الوصية التي تقول : " أعبد إلهك كل يوم ، عليك بالقربان والتبريكات وحرق البخور " ، فلم يكن لدافع ديني محض بل لأجل ان تحظى بمقابل مادي مباشر كما تشير خاتمة الوصية لإن " التبجيل يولد الحسنات والقربان يطيل العمر " [٩] ، وهذا ما يتضح أيضا من إحدى

---

[٤] قاشا ، سهيل ، الحكمة في وادي الرافدين ، (بيروت ، ٢٠٠٦) ، ص ٣١ – ٣٣ .
[٥] باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٧٩ – ٨٥

[٦] قاشا ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .
[٧] المصدر نفسه ، ص ٧٦.
[٨] المصدر نفسه ، ص ٧٢ .
[٩] الجبوري ، صلاح سلمان رميض ، أدب الحكمة في وادي الرافدين ، (بغداد ، ٢٠٠٠) ، ص ١١٤ – ١١٥ .

الوصايا التي توصي بالنهي عن الزواج من المومس ، فقد ارتبطت بمبررات واقعية وهي : " أن أزواجها كثيرون ، أنها ستمزق البيت الذي تدخله ، وشريكها لا يستطيع الحفاظ على نفسه " [١٠]، وكذلك عندما أوصى أحد الآباء أبنه ، " أياك والتردد على دار القضاء ، وأياك أن تتباطئ في مكان يجري فيه نزاع " فذلك لكي لا يوجه مواقف هو في غنى عنها " ، لأنهم سيجعلونك طرفا في نزاع ويأتوا بك شاهدا " [١١]،وهذا ما نجده كذلك في وصية أب لأبنه الذي عين موظفا في القصر ، إذ نجد أن الأب يحذر أبنه من إقتراف أي جريمة أو إختلاس لا لشيء إلا لأن عواقبها وخيمة ، وذلك بقوله : " لا ترفع نظرك إلى أي شيء (من كنوز قصر الملك) ، ويجب أن لا تشوقك الرغبة في إرتكاب إختلاس ، لإنه فيما بعد يمكن للأمر أن يتم تفحصه ، ويكتشف الإختلاس الذي إرتكبت " [١٢] .

ولأن الأسرة هي عماد المجتمع فقد ركز النظام الأخلاقي العراقي القديم على الروابط الأسرية وضرورة تمتينها وتقويتها " أسمع كلام أمك كما تسمع كلام إلهك ، أحترم أخاك الأكبر ، أسمع كلمة أخيك الأكبر ، كما تسمع كلمة أبيك ، لا تغضب أختك الكبرى " [١٣]، كما دعا إلى عدم الإساءة إلى الجار ونقل المشاكلات إليه ، كما تعرض ذلك إحدى الحكم الجميلة : " السرطان أمتلأ بيته بالماء فأنتقل إلى بيت جاره " [١٤]، ولإن أخلاق المرء هي إنعكاس لتربيه فقد كان الآباء يحرصون على محض أولادهم النصح وإرشادهم إلى الطريق الصحيح كجزء من واجب الآباء تجاه الأبناء حتى لا يقعوا في المشكلات جراء أفعالهم الخاطئة وهذا ما يتضح من إحدى الوصايا التي ورد فيها : " تحكم بفمك وأحترس من كلامك ، فهنا تكمن ثروة الرجل ، تذكر إن شفتيك ثمينتان ، أطع كلام أمك كأنه أمر إلهي ، لا تجعل الغضب يظهر على وجهك أثناء الخصام " [١٥]، وهناك حكمة ثمينة وردت على لسان الحكيم العراقي القديم مضمونها : " إذا كنت قد فعلت شرا بصديقك فما عساك تفعل بعدوك " [١٦]، وهي تذكرنا بوصية السيد المسيح " وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ " [١٧].

ومن ثم يتضح لنا صلة المبدأ الأخلاقي في العراق القديم بالجوانب الحياتية والعملية ، فالأخلاق عند العراقيين القدماء ليست نابعة من إرادة فوقية تفرض أوامرها

---

[١٠] الجبوري ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .
[١١] المصدر نفسه ، ١١٣ .
[١٢] الشواف ، قاسم ، ديوان الأساطير ، الكتاب الثاني ، (بيروت ، ١٩٩٧) ، ص ٣٥٩ .
[١٣] الجبوري ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
[١٤] قاشا ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .
[١٥] الجبوري ، المصدر السابق ، ص ٧٣ .
[١٦] قاشا ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .
[١٧] انجيل متى ٥ : ٤٤ .

بالترهيب الديني أو بالإلزام القانوني بل من حاجة عملية وضرورة حياتية ، ما يجعل الإلتزام بها من الأمور الأساسية التي لا غنى للإنسان عنها ليعيش آمنا وسعيدا .

لمدة طويلة عدت المملكة المصرية القديمة التي أسسها الملك (نارمر) أو (مينا) في حدود ٣٠٠٠ أول مملكة موحدة في التاريخ [١]، فضلا عن الدولة الأكدية التي أسسها سرجون (شاروكين) الأكدي (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م) و التي عدت من قبل كثير من المؤرخين أول دولة كبيرة شهدتها منطقة الشرق الأدنى القديم [٢]، لكن البحوث الحديثة أثبتت خطأ هذا الرأي ، وأن هناك دولة سبقت الدولة المصرية في تأسيس أولى الدول الموحدة و الدولة الأكدية في تأسيس أولى الدول الكبيرة أو الإمبراطوريات ، أمتد نفوذها إلى أجزاء واسعة من منطقة الشرق الأدنى القديم ، ألا وهي دولة أوروك (الوركاء) ما قبل السلالة الأولى ، وإن الزمن الذي حكمت فيه هو عصر أوروك (٤٠٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م) [٣]، إذ تمكنت من تأسيس شبكة من المستعمرات التجارية وصل نفوذها إلى بلاد السند التي تسود فيها حضارة (هارابا) و (موهنجيداروا) شرقا وإلى مصر التي تسود فيها الحضارة الجرزية غربا [٤]، إذ أمنت أوروك أتصالها بهذه المناطق بوساطة مراكز إدارية وحاميات عسكرية قامت بوضعها على الطرق المؤدية إلى المحطات التجارية كـ(تل براك) و (حبوبة الكبيرة) في شمال سوريا وسوسة وتبة يحيى في إيران و مدينة موقع (هاسين بي) في الأناضول (تركيا) [٥]، أما طريقة السيطرة على هذه المناطق فيبدو أنها كانت تتم بوسائل مختلفة كـ العمل العسكري كما أثبتت ذلك آثار (تل حموكار) ، وهو موقع أثري في الجانب السوري من الحدود المقابلة لمدينة سنجار العراقية ، إذ عرضت هذه الآثار حصول معركة كبيرة استخدمت فيها قذائف فخارية تسببت في تدمير أجزاء من المدينة وذلك في حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد [٦]، كما خضعت مناطق أخرى بالأساليب الدبلوماسية والإغراءات الإقتصادية ، وربما تكون (آراتا) الواقعة شمال شرق إيران والتي ورد ذكرها في عدد من ملاحم بلاد الرافدين من المدن التي خضعت لأوروك بوسائل غير الوسائل العسكرية [٧]، إن سيطرة أوروك على مناطق شاسعة هو دليل على ما لديها من إمكانات سياسية وإقتصادية وعسكرية كبيرة ، إذ

---

[١] حداد ، رضا ، تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، (القاهرة ، ٢٠٢١) ، ص ١٤ .
[٢] رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ٢٠١.
[٣] حول عصر اوروك ينظر : باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٢٦٠ – ٢٧٠ .
[٤] حبيب ، باسم محمد ، أوروك : نظرة إلى أسباب وعوامل توسعها السياسي والاقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد ، مجلة كلية التربية – جامعة واسط ، نيسان ، ٢٠١٩ ، ص ٤٩٥ – ٤٩٦ .
[٥] المصدر نفسه ، ص ٤٩٧ – ٥٠٠ .
[٦] المصدر نفسه ، ص ٤٩٣ .
[٧] المصدر نفسه ، ص ٤٩٤ .

قدرت مساحتها في نهاية عصر جمدة نصر (٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م) بحدود ٦٥٠ أيكر [٨]، أي بقدر حجم مدينة أثينا اليونانية في أوج مجدها ، أما سكانها فقدروا بحدود (٥٠) ألف نسمة [٩]، وهو عدد كبير في ذلك الزمن ، وهي تملك موارد زراعية كبيرة فضلا عن تلك الموارد الناتجة من علاقاتها التجارية الواسعة [١٠]، أما نظامها السياسي فمن المحتمل أنها كانت محكومة من نظام تهيمن عليه المؤسسة الدينية مدعوما بمؤسسات الديمقراطية البدائية التي أشارت إحدى النظريات إلى وجودها في بلاد الرافدين في عصر فجر التاريخ (العصر الشبيه بالتاريخي) [١١].

هذا ما طرحته في بحثي الموسوم : (أوروك : نظرة في أسباب وعوامل توسعها السياسي والإقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد) المنشور في مجلة كلية التربية - جامعة واسط (العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر ، ٢٠١٩) .

---

[٨] حبيب ، باسم محمد ، أوروك : نظرة إلى أسباب وعوامل توسعها السياسي والاقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد ، ص ٤٨٩ .

[٩] المصدر نفسه ، ص ٤٨٩ .

[١٠] المصدر نفسه ، ص ٤٩٢ .

[١١] حول هذه النظرية ينظر : سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، (الموصل ، ١٩٩٣) ، ص ٢٣ – ٢٨ .

المؤرخين العراقيين وضرورة إعادة الاعتبار للعصر الكشي

من السلالات المهمة التي حكمت العراق في العصور القديمة : السلالة الكشية أو ما عرفت بسلالة بابل الثالثة ، ولهذه السلالة دور كبير في تأريخ عصرها ، لانها واكبت التحولات الكبيرة التي شهدها الشرق الادنى القديم وظهور امبراطوريات قوية كان للسلالة الكشية مواقف منها اتسمت في الغالب بالحذر والمهادنة ، الامر الذي أسهم في إبعاد بلاد الرافدين عن الصراعات المستعرة آنذاك بين الدول والامبراطوريات الكبيرة المتنافسة في المنطقة .

لكن مما يؤسف له أن هذه السلالة المسالمة و المبدعة ما فتئت تتعرض للجحود والنكران من معظم مؤرخي العراق القديم ، لا لشيء إلا لأنها لا تنتمي للأقوام الجزرية أو السامية [١]، مع العلم إن سكان العراق الحاليين لا ينتمون في أصولهم لعرق معين ، بل هم نتاج انصهار أقوام عدة شكلت بمجلها الشخصية العراقية الحديثة ، ولذلك ليس سليما إحالة العراقيين الحاليين إلى عرق معين ، أو الافتخار بطائفة دون أخرى أو تلميع جماعة وإغفال أخرى بأي شكل كان ، لأنه فضلا عن كونه تصرف عنصري ممجوج ، فأنه أيضا يناقض الواقع ويجانب الحقيقة بأكثر من وجه وكما بينا آنفا .

فمن الضروري بمكان إعادة الاعتبار لحكم الكشيين في العراق حتى يكون لتاريخنا وجه إنساني ، فليس من العدالة في شيء الانحياز عند كتابة التاريخ أو الإطناب هنا والإيجاز هناك والافتخار بحدث والإشاحة عن حدث آخر، فتاريخنا لا يمكن مصادرته من قبل جهة أو جماعة معينة ، لأنه تاريخ كبير وتعود ملكيته لكل الشعب العراقي ، فإذا ما صح عد الكشيين إحدى الأقوام الغازية للعراق ، فهذا ما قد ينطبق أيضا على بقية الأقوام الأخرى لأنها قدمت أيضا من خارجه ، ففيما عدا السومريين الذين مازال الجدل يحوم حول أصولهم [٢]، فإن الاكديين والاموريين والأشوريين والكلدانيين والآراميين يعودون إلى أصول جزرية بدلالة لغاتهم وأديانهم المتشابهة [٣]، وبالتالي يمكن عدهم من الغزاة أيضا ، مع أننا لا نتفق مع وجهة النظر التي تقرأ التاريخ من زاوية عرقية لأنها زاوية ملتبسة وعنصرية ، فالتاريخ نتاج جهود أقوام مختلفة لكل منهم مساهمته فيه ، سواء أكانت تلك المساهمة صغيرة أم كبيرة .

---

[١] الأحمد ، سامي سعيد ، فترة العصر الكشي ، مجلة سومر ، الجزء ١-٢ المجلد ٣٩ لسنة ١٩٨٣ ، ص ١٣٤ .

[٢] رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

[٣] رو ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ – ٢٠٤ .

لقد كان للكشيين مساهمات جليلة في تاريخ البلاد السياسي ، أهمها : إعادة الوحدة والاستقرار إلى إليها بعد الفوضى التي خلفها سقوط سلالة بابل الأولى (سلالة حمورابي) عام ١٥٩٥ ق.م ، إذ تمكن الكشيون من إبعاد الغزاة وإعادة الوحدة إلى البلاد في ظرف عقود عدة ، ثم نشروا الأمان والسلام في ربوع البلد ، إذ بقيت البلاد في مأمن من الحروب لعدة قرون ، وهو أمر يحسب لهم كثيرا ، لأن البلاد لم تشهد مثل هذا الهدوء لا قبلا ولا بعدا ، ما يضع العهد الكشي كأحد أهم العهود المشرقة في تاريخ العراق قديما وحديثا ، وهو دليل على مهارة الملوك الكشيين وحنكتهم السياسية ، بحيث جنبوا البلاد ويلات الحروب دون أن يبذلوا مجهودات عسكرية كبيرة ، أما ما حازوه من مكاسب للبلاد فجاء بفضل مهارتهم الدبلوماسية و حنكتهم السياسية ، إذ كانوا يجيدون اللعب بالأوراق الدولية ويمارسون المساومات بكفاءة عالية ، ما جعل بابل قوة سياسية عظمى على الرغم من أنها لم تكن تملك آنذاك الكثير من القدرات العسكرية كما كان الأمر سابقا ، وليس أدل على هذه المهارة مما طرحته رسائل العمارنة (رسائل مكتوبة بالاكدية عثر عليها في بقايا عاصمة اخناتون في مصر الوسطى) ، من حيل و مساومات كشفت جانبا من الأساليب الدبلوماسية التي كانت سائدة آنذاك [٤]، كذلك يحسب للكشيين ولعهم بالتراث العراقي القديم واهتمامهم الكبير بجمع نصوصه واستنساخها وحفظها بدليل أن كثير مما وصلنا من نتاجات حضارة بلاد الرافدين يعود إلى مدة حكمهم [٥]، أما انجازاتهم المعمارية فيكفي أنهم شيدوا واحدة من اكبر الزقورات في العراق ، مازالت بقاياها ماثلة في أطلال المدينة التي بنوها وهي عكركوف (أطلال مدينة دور كاليكالزو) ، هذا بالإضافة إلى انجازات أخرى رائعة في شتى مجالات الحياة [٦].

فما قدمه الكشيون لحضارة بلاد الرافدين جدير بان يذكر ويثمن بما يليق ويستحق ، أما تجاهل لدورهم وإغفال إسهاماتهم فتعد خيانة للأمانة العلمية وتناقض مع المفاهيم والقيم الإنسانية التي هي الأجدر أن تسود ، إذن لنكن منصفين ونتكلم عن إسهاماتهم بشفافية و روح حيادية .

---

[٤] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٥٠٤ .
[٥] باقر ، المصدر السابق ، ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤ .
[٦] المصدر نفسه ، ص ٤٩٩ .

أحياء مكتبة أور

وأنا أتجول في مواقع شبكة المعلومات العالمية (النت) عرض علي موقع مكتبة الإسكندرية بإسمها المهيب وتاريخها العريق بوصفها واحدة من أقدم المكتبات في العالم ، فتذكرت على الفور أهمية هذه المكتبة ودورها في إعلاء اسم مصر والتذكير بحضارتها القديمة ، وهنا تساءلت : لماذا لانفعل مثلهم؟

أليس لدينا العديد من المكتبات القديمة ؟ أليست هذه المكتبات من تشييد سكان العراق القدماء ؟ ثم وهو الأهم أليست مكتباتنا أقدم من مكتبة الإسكندرية وهي تستحق إن يعاد إحيائها أيضا ؟

لقد وجدت إن من الضروري تذكير المعنيين بهذه القضية عسى إن تحظى باهتمامهم مطالبا الحكومة و منظمة اليونسكو و كل من له علاقة بهذا الأمر ، العمل على إحياء واحدة من أعرق المكتبات في العالم ، مكتبة أور السومرية ، التي وأن لم تكن الأقدم لوجود مكتبات عراقية سومرية يمتد عمرها إلى أبعد من ذلك ، و ربما إلى زمن قريب من عهد اختراع الكتابة (حدود أواخر الإلف الرابع قبل الميلاد) ، إلا أن مكتبة أور لها أسم مميز : أولا - لأنها أول مكتبة مصنفة ، وثانيا - لحجمها الكبير ، أذ قدرت الألواح المسمارية التي وجدت فيها بعشرات الآلاف ، وهو رقم كبير يدل على سعة المكتبة ومكانتها الكبيرة آنذاك ، وعلى الرغم من أن المكتبة هي مكتبة ألواح (bit - duba) بالمسمارية إلا أنها عرفت نموذج الكتاب ، وربما كانت أول من ابتدعته ، إذ أشار الأستاذ طه باقر إلى اعتماد الكتبة الرافديين على طريقة ربط الرقم بعضها ببعض لتكوين نص متصل أو تذييلها بالسطر الأول من النص التالي ليكون دالا على ما يأتي بعده ، عادا هذه الطريقة على أنها ربما تكون البداية لمفهوم الكتاب المعروف لدينا مع أن هناك من يرى من أن طية البردي المصرية ربما هي أصل الكتاب الحالي وليس سلسلة الألواح المتصلة أو المترابطة لحضارة بلاد الرافدين ، أما الفترة الذهبية لهذه المكتبة فواكبت سيادة أور السياسية في مدة حكم سلالتها الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق.م) ، إذ حكمت هذه السلالة معظم إرجاء العراق فضلا عن بعض أجزاء الشرق الأدنى القديم ، وربما سمح هذا بانتشار نموذج المكتبة في عموم هذه المنطقة التي كانت صلاتها مستمرة مع حضارة بلاد الرافدين ، ، وعلى ما يبدو فان أهم البلدان التي حاكت نموذج الكتاب الرافديني هما عيلام في غرب إيران وسوريا في غرب بلاد الرافدين التي نشأت فيها مراكز حضارية ذات علاقات وطيدة بالمراكز الحضارية لوادي الرافدين ، قبل إن تصل مسيرة المكتبات إلى الحضارة الأغريقية التي بلورت الشكل الحالي للمكتبات والذي توج بإنشاء مكتبة

الإسكندرية ، اكبر مكتبة في عالم ذلك الزمان ، إذ جرى تشييدها في عهد ملوك البطالمة خلفاء الاسكندر المقدوني في حكم مصر ، واليوم تعيد مصر تشييد هذه المكتبة على الرغم من أنها وبمفاهيم أصحاب النظرة القطرية من تشييد حكام أجانب هم البطالمة المقدونيين ، إذ حصلت مصر على دعم كثير من دول العالم بما في ذلك العراق الذي تبرع لها بمبلغ كبير من المال - بحسب علمي – ومع أعتزازنا الكبير بإسهام العراق في إعادة تأسيس مكتبة الاسكندرية فأننا نأمل أن يكون هذا بداية لتقليد جديد يشمل إعادة إحياء المكتبات العراقية القديمة أيضا و التي تشير الأدلة المتوفرة إلى إنتشارها في العراق القديم ، ومن المكتبات التي تم التعرف عليها : مكتبات نيبور (نفر) وشروباك فضلا عن مكتبتي نينوى و أور الشهيرتين . إن الأهمية المترتبة على إحياء مكتبة أور تتمثل بما يأتي :

(١) التواصل مع تاريخنا القديم ، إذ تضمن المكتبة إستعادة واحدة من رموز حضارتنا القديمة ، ما يجعنا أكثر قربا منها وأكثر تواصلا مع أرثها ومنجزاتها ، بما يسهم في تطوير حاضرنا وبناء مستقبلنا وتنوير أجيالنا بقيم المدنية والتحضر .

(٢) التذكير والاحتفاء بمنجزات إسلافنا القدماء صانعي الحضارة الرافدية العظيمة ، إذ يعرض إعادة أحياء مكتباتنا القديمة ، عظم اهتمامنا بشخوص تلك الحضارة ، وفضلا عن جعلها شاهدا على مدى العظمة والمكانة السامية التي كانت عليها حضارة بلاد الرافدين التي نعتز بإرتباطنا بتأريخا وأرثها الحضاري .

(٣) يوظف أسما وهوية مرموقة للصرح العلمي الجديد (المكتبة) ، ما يجعلها مركز جذب واهتمام للمعنيين أو المهتمين بالتراث القديم ، فضلا عن الباحثين عن المصادر العلمية والمعرفية ، وقد تحظى بالدعم المادي والمعنوي على غرار ما حصل مع مكتبة الإسكندرية .

(٤) إضفاء قيمة جديدة للمنطقة الحاضنة لهذا الصرح الكبير يضاف إلى قيمتها المعنوية القديمة ، ما يدعم جهود الارتقاء بواقعها إعماريا وخدماتيا ، و يعيد لها وجهها التاريخي ، ويزيد من أهميتها السياحية .

(٥) أن إنشاء مكتبة عالمية مرموقة سيكون عاملا فاعلا في الارتقاء بالمستوى العلمي للمنطقة ، ويدفع إلى بناء مؤسسات علمية ساندة أو رديفة تمنح المكتبة قيمة أكبر .

لكن لا يجب أن تكون المكتبة المقترحة مجرد متحف للرقم الطينية المسمارية ، أي مجرد رمز ميت لا روح فيه يذكرنا بمنجزات الأسلاف وابتكاراتهم العلمية وأكتشافاتهم المعرفية ، إنما ما نريده هو توظيف الرمز والمعنى والهوية لخدمة

أهداف العلم والمعرفة ، فالكتب التي ضمتها مكتبة الإسكندرية - على سبيل المثال - ليست الكتب نفسها التي تضمها ألان ، والأقسام التي تتفرع إليها المكتبة في الحاضر ليست هي نفسها في السابق ، فلو حصل وبنيت المكتبة على غرار وضعها القديم لما أصبحت بالقيمة والأهمية التي عليها الآن ، إنما توظيف أسمها وتاريخها بما يضمن تحقيق أكبر فائدة منها ، وهذا بالضبط ما نريده لمكتبتنا التي يجب أن تحمل صفتها العلمية والحضارية وأن تعمل على استثمار الماضي في خدمة الحاضر لضمان أكبر فائدة ممكنة .

إن بإمكان المكتبة إن تستوعب أكثر من قسم ومجال معرفي إضافة إلى خزانة الكتب التي تمثل نواتها أو أساسها ، فيكون لها على غرار المكتبات الحديثة أكثر من نشاط ، كما هو الحال مع النشاط المتنوع الذي تقوم بها مكتبات العالم الشهيرة كمكتبة الكونغرس الأميركي ومكتبة الأمم المتحدة ومكتبة الإسكندرية .. الخ ، ما يعيد إلى الأذهان المعنى الذي قدمه لنا بيت الحكمة العباسي الذي مثل هذا التنوع خير تمثيل لأنه كان دارا للعلم وخزانا للكتب ومكانا للترجمة وما إلى ذلك من الأنشطة العلمية ، و يمكن للمكتبة إن تمارس مختلف أنواع النشاطات من بيع وإعارة الكتب وإصدار نشرات مختلفة تعرض وظائف المكتبة وأنشطتها المختلفة ، فضلا عن ضرورة إحتوائها على مركز للبحوث يسهم في توسيع نافذة الفائدة فيها ويمنح المكتبة بعدا علميا أكاديميا ، أما أقسام المكتبة فيجب إن توظف لخدمة أكثر من جانب على إن يعطى للتاريخ القديم قدرا عاليا من الإهتمام ، كأن يكون هناك قسم خاص بالمؤلفات المختصة بتاريخ العراق القديم ، ومراكز للبحوث تختص بالتاريخ الرافدي عامة والسومري خاصة ، فضلا عن العناصر الحضارية الأخرى المميزة لتاريخ العراق القديم كاللغتين السومرية والاكدية والكتابة المسمارية والحضارة بمختلف تفاصيلها .

آشور .. أولى الأمبراطوريات العظيمة في العالم

عد هيرودوتس المؤرخ اليوناني الملقب بأبي التاريخ الإمبراطورية الآشورية أولى الإمبراطوريات العظيمة التي شهدها التاريخ ، بأقاليمها

التي شملت معظم منطقة الشرق الأدنى القديم [١]، وهي غرب إيران وجنوب آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر ، فضلا عن مناطق أخرى في الجزيرة العربية والخليج العربي ، إذ حكمت هذه المنطقة المترامية الأطراف من مركزها في بلاد آشور ، أي منطقة الموصل الحالية ، وهي المنطقة التي تشتمل آنذاك على عدة عواصم ، أقدمها آشور التي تسمت الدولة بإسمها ، وهي أيضا تسمية الإله آشور الذي يقع معبده الرئيس في المدينة نفسها ، ما يعني أنها تعد أيضا المدينة المقدسة للدولة الآشورية ، على غرار مدينة بابل التي عدت في العصر البابلي القديم وما تلاه من عصور المدينة المقدسة لبلاد بابل فضلا عن كونها العاصمة السياسية [٢]، كما توجد في هذه المنطقة عواصم أخرى تم بناؤها بعد توسع الإمبراطورية الآشورية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، من هذه العواصم : كالح (موقع نمرود) التي يعتقد بإنها بنيت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ثم جرى جعلها عاصمة للإمبراطورية في عهد الملك آشور ناصربال الثاني في القرن التاسع قبل الميلاد ، بعد ان تجاوزت الإمبراطورية الآشورية حدودها القديمة ، لتتوسع شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فضمت من الأراضي آنذاك ما يفوق ما كانت عليه مساحتها بعدة أضعاف [٣]، ثم بنيت عاصمة جديدة في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد هي دور شاروكين (موقع خرسباد) ، بناها الملك سرجون الثاني الآشوري ، أحد الملوك الآشوريين العظام ، إذ جرى بناؤها إحتفاءا بالإنتصارات الكبيرة لهذ الملك ، لاسيما ضد مملكة أورورواتو شمال شرق آسيا الصغرى ، فضلا عن وصوله إلى حدود مصر بعد سيطرته على أجزاء من فلسطين [٤]، أما آخر العواصم الآشورية في هذه المنطقة مدينة نينوى (تل كويسنجق) ، فيعود تأسيسها إلى زمن قديم جدا ، إذ ذكرت في كتابات الملك أور نمو مؤسس سلالة أور الثالثة في القرن الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد بصيغة (نينا – آ) و بصيغة (ني – نو – آ) ، وهو أسم قد يدل على أصول سومرية لهذه المدينة ، إذ يعتقد البعض أن أسمها مأخوذ من أسم الآلهة السومرية (إنانا) (عشتار) ، وعلى الرغم من قدم تأسيسها إلا أنها لم تبرز إلا في

---

[١] أيفانز ، أ .ج ، هيرودوت ، ترجمة : أمين سلامة ، (بيروت) ، ص ٤٦ .
[٢] رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .
[٣] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٥٥١ – ٥٥٢ .
[٤] المصدر نفسه ، ص ٥٦٦ – ٥٦٨ .

أواخر عهود الدولة الآشورية ، لاسيما ملوكها الآواخر إبتداءا من سنحاريب ، مرورا بأسرحدون وآشور بانيبال ، وصولا إلى سقوطها المدوي عام ٦١٢ قبل الميلاد في عهد آخر ملوكها وهو أحد أبناء آشور بانيبال ، إذ تعرضت لهجوم من البابليين والميديين فضلا عن شعوب أخرى جاءت بهدف السلب والنهب ، فكان ذلك إيذانا بسقوط أحد أعظم الإمبراطوريات التي شهدها التاريخ القديم والتي ذاع صيتها في الآفاق [٥].

لقد حققت هذه الإمبرطورية إنجازات كبيرة غير مسبوقة ، ففضلا عن تبنيها للتقاليد الحضارية الرفدينية من لغة اكدية وخط مسماري وكتابة على الطين ، قامت أيضا بحفظ الكثير من المنجزات الحضارية المهمة وإنقاذها من الضياع ، من خلال مكتبة الملك آشور بانيبال الشهيرة التي ضمت آلاف الرقم الطينية المسمارية ، بمواضيع مختلفة : أساطير وعلوم ومعارف .. الخ ، إذ تعد هذه المكتبة واحدة من أقدم وأكبر المكتبات التي عرفها العالم ، وتعد بداية لتقليد بناء المكتبات من قبل الملوك [٦]، إذ وجدنا عدد من الملوك يحذون حذو آشور بانيبال في بناء المكتبات التي ترفع من ذكرهم وتزيد من سمعتهم ، كما في مكتبات الإمبراطورية الأخمينية والمكتبات اليونانية خاصة في مدينة أثينا ، وأخيرا مكتبة الأسكندرية الشهيرة التي بناها الملك بطليموس الأول ، أول ملوك البطالمة في مصر ، ومن الإنجازات الأخرى تطويرها للنظم الإدارية ، إذ تم تقسيم الإمبرطورية إلى عدة وحدات إدارية متداخلة ، إبتداءا من القرية والبلدة الصغيرة ، مرورا بعاصمة المقاطعة والأقليم ، وصولا إلى عاصمة الإمبراطورية ، فيخضع الإداري الذي يحكم القرية أو البلدة الصغيرة إلى حاكم المقاطعة والأخير إلى حاكم الأقليم وصولا إلى الملك [٧]، كما نجحوا في بناء جيش كبير ذو فرق متخصصة ، فهناك فرق الخيالة والمشاة والهندسة العسكرية والضفادع البشرية والتموين والعيون (الإستخبارات) والطباخين ، فضلا عن فصيل يضم عدد من الموسيقيين والكتبة والإعلاميين والفنانين (النحاتين) ، للترفيه عن المقاتلين ونقل أخبارهم إلى الوطن ورفع معنوياتهم وتدوين أخبارهم وتصوير معاركهم .. الخ [٨]. أما نظام المواصلات فعده المؤرخون أحد أهم الأنظمة البريدية القديمة [٩]، وقد يكون أول نظام بريدي متطور أخذت منه الإمبراطوريات والممالك التالية ، لاسيما الإمبراطورية الآخمينية التي يعد نظامها البريدي نسخة من النظام البريدي الآشوري الذي يضم عدد من السعاة والمكاتب في عموم الإمبراطورية .

---

[٥] باقر ، المصدر السابق ، ص ٥٨٣ .
[٦] رو ، جورج ، العراق القديم ، ص ٤٧٥ – ٤٩٥ .
[٧] المصدر نفسه ، ص ٤٥٦ – ٤٦٢ .
[٨] المصدر نفسه ، ٤٦٢ – ٤٦٦ .
[٩] ساغز ، المصدر السابق ، ص ٣٨٣ – ٣٨٧ .

كما عرف الآشوريون بنحتهم المميز الذي تمثلت فيه خصائص فنية مختلفة [١٠]، أهمها الخصائص الفنية لحضارة بلاد الرافدين ، إذ جرى الإستعانة بفرق من النحاتين لتزيين القصور بمناظر الحملات العسكرية ومناظر الحفلات والصيد كجزء من النشاط الإعلامي الذي يسعى به الآشوريون لإبراز قوتهم للشعوب التي تحيط بهم ، فضلا عن رعاياهم والشعوب الخاضعة لإمبرطوريتهم ، إذ يعتقد أن الآشوريون كانوا السباقين في هذا النوع من النشاط الإعلامي ذو الصبغة السياسية والعسكرية ، إذ كان لهم دور مهم في تقوية البناء الآشوري وزيادة ثقة الرعايا بملوكهم وخشية الشعوب الأخرى من السطوة الآشورية [١١].

لكن على الرغم من هذه المنجزات العظيمة ، تعرضت الإمبراطورية الآشورية للكثير من التشويه على يد أعداؤها الذين صوروها دولة معتدية لا تتوانى عن الغزو والتدمير والتخريب لضمان الحصول على الأموال والثروات ، وللأسف فقد أنساق عدد من المؤرخين المعاصرين خلف حملة التشويه هذه ، دون التمعن في أسباب هذه الحملة التي ترتبط بشكل كبير بغيرة تلك الشعوب من العظمة الآشورية التي بلغت مديات غير مسبوقة ، وإلا فإن كل ما ذكر مجاف للحقيقة بشكل كبير ، لإن الدولة الآشورية وإن كانت دولة عسكرية الطابع إلا أنها كانت تتميز أيضا بروح مدنية [١٢]، وهو ما يمكن ملاحظته في قوانينها ومراسيمها وسياستها الداخلية والخارجية ، فهي من الدول القليلة التي أعطت لمفهوم المواطنة بعدا مدنيا ، ومن أولى الدول التي سعت إلى خدمة مواطنيها وضمان أمنهم ورفاههم و سعادتهم ، أما غزواتها فلم تكن تختلف عن غزوات الدول الأخرى إلا قليلا ، ولعل هذا الفارق ناجم من الطبيعة الجغرافية الوعرة للدولة الآشورية وإحاطتها بشعوب غالبا ما كانت تتآمر ضدها ، إذ كان عليها وهي الدولة الصغيرة أن تدافع عن كيانها ضد المخاطر التي تتهددها وهي كثيرة جدا ، ما جعلها في حالة صراع دائم مع جوارها ومحيطها المليء بالقبائل التي تمتهن الغزو ، ولعل أبرز من أوضح هذه الحقيقة عن وضع الآشوريين الصعب ، المؤرخ الشهير (هاري ساكز) صاحب الكتابين الشهيرين : (عظمة بابل) و (عظمة آشور) ، إذ أبدى أعجابه الشديد بالآشوريين لإن ما حققوه للحضارة البشرية لا يقدر بثمن ، وهو يرى أنه خليق بإن يضع آشور في مقدمة الدول التي خلفت منجزت كبيرة للبشرية .

---

[١٠] حول النحت الآشوري ينظر : بارو أ أندريه ، آشور ، ترجمة : سليم زرازير ، (بيروت ، ٢٠١١) .
[١١] حول ذلك ينظر : حبيب ، باسم محمد ، النحت الآشوري في الألف الأول قبل الميلاد الموضوعات والدلالات التاريخية ، جلة الاستاذ ، كلية التربية – جامعة بغداد ، مجلد ٦١ عدد ١ ، ٢٠٢٢ .
[١٢] ساغز ، هاري ، عظمة آشور ، ترجمة : خالد اسعد عيسى واحمد غسان سبانو ، (دمشق ، ٢٠٠٨) ، ص ٧ .

الموسيقى والغناء نظرة إلى وظيفتهما في العراق القديم

لم تكن الموسيقى والغناء في العراق القديم مفصولة عن الحياة والعمل ، إذ يحتاج العمال والصناع والمزارعين إلى الموسيقى التشجيعية والأغاني الحماسية لكي يؤدوا أعمالهم دون ملل أو كلل ، هذا فضلا عن مرافقة الطقوس التي يراد بها نشر الخير في البلاد و جلب الخصب إلى الأراضي الزراعية ، كطقوس أعياد رأس السنة والزواج المقدس التي تقام بداية كل عام ، لكن هذا لا يعني أن توظيفهما جرى في هذا فقط ، إنما ولتحقيق المتعة أيضا ، وهذا ما حصل بعد أن أخذ المجتمع بالتعقد والتطور ، وفيما يخص دعم العمل والإنتاج و نشر الرفاهية بين الناس ودعم المجهود الحربي ، فقد تكرس ذلك عبر أجيال عديدة حتى أصبح من صميم واجبات الدولة ، وهذا ما تؤكده التنقيبات الأثرية التي جرت في مواقع عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م) ، إذ عثر فيها على آلات موسيقية بعضها في القصور والمعابد [١] وبعضها الآخر في المقابر مثل مقبرة أور الملكية العائدة إلى ذلك العصر[٢] ، من أجملها القيثارة السومرية الجميلة المزينة برأس ثور [٣] ، إذ يشير تزيينها به إلى ما للموسيقى من أهمية في جلب الخصب إلى الأراضي الزراعية الذي يعد الثور أهم رموزه آنذاك ، وتشير إحدى المقاطع في ملحمة جلجامش إلى إقامة الاحتفالات اليومية في مدينة أوروك وذلك على لسان البغي وهي تخاطب انكيدو : " تعال يا انكيدو إلى أوروك المحصنة ، حيث يلبس الناس أبهى الحلل ، وفي كل يوم تقام الافراح كالعيد ، حيث ... غلمان ... الآسنو " [٤] ، في إشارة إلى ما يتم إحياؤه من مناسبات اجتماعية : كالزواج وتخرج الأولاد من المدارس واكتمال تدريب الصناع وما إلى ذلك من المناسبات التي غالبا ما تقام على إيقاع الموسيقى والغناء .

هذا الأمر أعطى للموسيقى والغناء قيمة عالية في المجتمع وللموسيقيين والمغنين مكانة كبرى لدى الناس ، فقد كان معظم الموسيقيين والمغنين من علية المجتمع ، لاسيما الكهنة الذين يشكلون النسبة الكبرى منهم [٥] ، فضلا عن بعض الملوك والحكام والأمراء ، ومن أبرز هؤلاء جلجامش حاكم الوركاء في عصر فجر السلالات ، التي أشارت إحدى القصائد إلى حزنه الشديد على فقدانه آلتين موسيقيتين

---

[١] كريمر ، صوموئيل ، طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، ترجمة : نهاد خياطة ، (دمشق ، ٢٠٠٧) ، ص ٢٩ .

[٢] سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، (الموصل ، ١٩٩٣) ، ص ٣٥٦ .

[٣] بصمجي ، فرج ، كنوز المتحف العراقي ، مطوعات مديرية الآثار العامة ، ص ٢١٧ ، شكل ٨٢ .

[٤] باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٨٤ – ٨٥

[٥] سليمان ، عامر ، المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

تعودان له ، أشيرا لهما بلفظتي (بوكي) و (ميكي) ، إذ ورد على لسانه ما نصه : " يالو (بوكي) ويال (موكي) ، إن (بوكي) فتنته لا تقاوم وإيقاعه لا يقاوم " [٦]، و الملك شولكي (٢٠٩٤ – ٢٠٤٨ ق.م) ثاني ملوك سلالة أور الثالثة ، الذي عرف بإتقانه العزف على ثمان آلات موسيقية من بينها قيثارة وصفت بإنها ذات ثلاثين وترا وآلة موسيقية سميت بإسم أحد ملوك كيش القدامى وهو (أور - زبابا) (طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٤٢٤) ، وحفيدة الملك الأكدي نارام سين التي كانت تعزف على آلة موسيقية في معبد كرسو التابعة لدولة لكش السومرية ، فضلا عن أبنة ملك ماري (ياريم _ لم) التي ألحقها الملك الأشوري الذي خلعه (شمشي – أدد الأول) (١٨١٤ – ١٧٨٢ ق.م) بمدرسة الموسيقى العائدة لقصره [٧]، ونظرا لما للمغنين من مكانة ومنزلة فقد أقيم لبعضهم التماثيل كما في تمثال المغني (أور – نانشي) من مدينة ماري [٨] .

وفي مجتمع يقدس الموسيقى والغناء أو يعدهما أمران ضروريان لمسيرة الحياة ، كان من المنطقي أن نجد إهتماما واسعا بهما ، وهذا ما تعرضه بعض الأمثال التي كانت متداولة آنذاك ، منها المثل الذي يقول : " لا تبعد المغني المبتدأ إذا كان يجيد الغناء " ، وهو في الدعوة إلى صقل مواهب المغنين وتمكينهم من تحقيق طموحهم في التحول إلى مغنين ناجحين ، والمثل الذي يقول : " إذا حفظ المغني أغنية واحدة لكنه يجيد أداءها فهو مغني بحق " ، أي أن المغني حتى ولو كانت لديه أغنية واحدة ولكنها جيدة فيعد من المغنين الجيدين ، وكذلك المثل الذي يقول : " المغني الموسيقي الجيد هو الذي يعرف كيف يوزن آلته ويدعها ترن عاليا وما عدا ذلك فهو مغني فاشل " [٩] ، أي أن على المغني والموسيقي أن يكون عارفا بمكونات آلته الموسيقية ، قادرا على ضبطها وجعلها قادرة على عزف موسيقى جميلة ، لأنه بدون ذلك لن يكون قادرا على الغناء ، ما يعني حرص المغنين على أن يؤدوا أغنيهم تحت وقع المعزوفات الموسيقية لكي يكون الأداء جميلا والأغاني أكثر وقعا في النفوس ، وقد عد العلامة (كريمر) المغني أحد الشخصيات المؤثرة في نمو الأدب السومري وتطوره [١٠]، لأن كثيرا من المقطوعات الأدبية وخصوصا الشعرية منها كانت تؤلف من أجل أن تغنى ، إذ كان المغنين آنذاك يمثلون الواسطة في نقل ما ينظم من شعر أو يكتب من أدب إلى الناس .

---

[٦] كريمر ، صوموئيل ، السومريون .. ، ترجمة : فيصل الوائلي ، (الكويت ، ١٩٧٣) ، ص ٣٨٦ .
[٧] رشيد ، صبحي أنور ، الموسيقى ، حضارة العراق ، (بغداد ، ١٩٨٥) ، ص ٤١٨ .
[٨] مورتكارت ، أنطون ، الفن في العراق القديم ، ترجمة : عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، ص ١١٣ – ١١٤ .
[٩] رشيد ، صبحي أنور ، المصدر السابق ، ص ٤١١ .
[١٠] كريمر ، السومريون ، ص ٢٣١ .

لقد فسر بعض الباحثين النبرة الحزينة في الغناء الجنوبي بإنه نابع من الفواجع المتكررة التي واجهها المجتمع ، وهذا القول غير صحيح لإن وجود الغناء الحزين يعود إلى العصور القديمة ، إذ يشار له بلفظة (كالا) الأكدية ، وهذا الأمر مرتبط بمبدأ التخصص الذي كان شائعا آنذاك إنطلاقا من التقدم الحضاري السائد ، ولإن الغناء هو أحد مجالات العمل فهو محكوم بهذا المبدأ أيضا ، فنجد من يتخصص بالغناء الحزين الذي يتم أداؤه في حالات الحزن والفواجع ، كما في حالات دفن موتى الحروب أو العمل أو غير ذلك ، ومن يتخصص بالغناء الفرح الذي يؤدى في المناسبات السعيدة ، مثل : إكمال تدريب أحد الصناع أو أنهاء أحد الأعمال أو إكمال الحصاد أو تخريج أحد التلاميذ وما إلى ذلك والذي يشار لمؤديه بلفظة (نار) ، أما المصطلح العام للغناء والموسيقى فيشار له بلفظة (زمارو) الاكدية ، وهذا ما جعل الدولة بحاجة دائمة لفرق موسيقية وغنائية ، من بينها فرق عائدة إلى القصر ، من أمثلتها الفرقة العائدة إلى الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م) ، وهي مكونة من الرجال فقط [١١]، تستخدم في المناسبات العسكرية والخاصة بالقصر ، وأخرى تشرف عليها المعابد ، وهي المسؤولة عن إقامة المناسبات الدينية ذات الطابع الإقتصادي ، مثل : عيد رأس السنة (الأكيتو) الذي يجري إحياؤه في بداية نيسان من كل عام والذي يستمر لأثنا عشر يوما ، إذ تقام فيه مختلف الطقوس التي يراد بها الحصول على عام أكثر خصبا وازدهارا من العام السابق [١٢]، فضلا عن إحتفال طقس الزواج المقدس ، الذي تثبت الأدلة المتوفرة إشتماله على أداء معزوفات موسيقية وأغاني ، بعضها بأداء الزوجة المقدسة ذاتها ، ترد فيها إشارة إلى ما تقدمه الإلهة (إنانا) التي تمثلها الزوجة المقدسة من هدايا إلى الملك ، وهي هدايا غالبا ما تكون ذات صلة بالعمل والإنتاج ، تقول إحدى الأغاني :

" يا زوجي ، المخزن الكبير ، الأصطبل المبارك ،

أنا إنانا ، سوف أحافظ عليه من أجلك ،

سوف أحرس (بت الحياة) الذي لك " [١٣]

أما ما يؤكد إشتمال هذه المناسبات على أداء الأغاني وعزف المقطوعات الموسيقية والرقص ، مقطع ورد على لسان (دموزي) يحث فيه إنانا على إبلاغ أمها بإن سبب تأخرها ليس قضاء الوقت مع خطيبها الذي كان من غير المسموح به اللقاء به قبل

---

[١١] رشيد ، المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .
[١٢] سليمان ، المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
[١٣] كريمر ، طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، ص ٨٦ .

الزواج ، إنما إصطحاب صديقتها لها إلى الساحة العامة حيث كانت تقام الإحتفالات ، وذلك بما نصه :

" فلأخبرك ، فلأخبرك ،

أي إنانا يا أكثر النساء خداعا ، فلأخبرك

قولي أن صديقتي أصطحبتني معها إلى الساحة العامة

حيث سلتني بالموسيقى والرقص ،

وغنت لي أغنياتها الحلوة ،

في الإبتهاج الحلو قتلت الوقت هناك " [١٤]

ومما يؤكده لنا هذا المقطع أيضا ، أن الآلهة هي نفسها كانت تمارس الغناء والرقص ، وتعزف على الموسيقى حالها حال البشر ، على وفق مبدأ التشبيه الذي أتسمت به الديانة العراقية ، لذا لا غرابة في أن يشيع هذا النوع من الفن في الأوساط الاجتماعية ، ويغدو جزءا من نمط الحياة السائد آنذاك .

[١٤] كريمر ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

علم الآشوريات .. نبذة ملخصة عن نشوءه وتطوره وآفاقه

يعد علم الآشوريات من العلوم التأريخية التي ارتبطت بالأهتمام الغربي بالشرق أي ما يعرف بالإستشراق ، فهو علم غربي من ناحية نشوءه وتطوره شرقي من حيث مادته وموضوعه ، إذ تعد

حضارة وادي الرافدين بكل حدودها وإمتداداتها ميدانه الأساس ، فيما تعد آثار وكتابات وادي الرافدين اهم مصادر هذا العلم ، وقد استمر هذا العلم بالنمو والتطور منذ لحظة ظهوره وإلى الآن محققا الكثير من النجاحات التي أثرت هذا العلم ووسعت من آفاقه ، ومن هذه النجاحات اكتشاف مواقع المدن القديمة كبابل ونينوى وأور ، ناهيك عن موقع اخرى لم يكن لها ذكر في النصوص المقدسة او الكلاسيكية ، هذا بالإضافة إلى حل رموز الخط المسماري الذي دونت به طائفة من اللغات القديمة وبشكل خاص اللغتين السومرية والأكدية ، أما ما يميز علم الآشوريات فإنه وعلى الرغم من كم الإكتشافات الكبير ما زال هناك الكثير مما يمكن فعله ، كالكشف عن مئات المواقع الأثرية التي مازالت مطمورة تحت سطح

الارض ، ناهيك عن فك طلاسم عشرات الآلاف من الرقم الطينية المدونة بالخط المسماري الموجودة في الكثير من جامعات ومتاحف العالم والتي تشكل مادية كافية لأشتغال أجيال عديدة من علماء الآشوريات .

ومن اجل أعطاء فكرة عن هذا العلم سنتناول اهم ركنين فيه : التنقيبات الأثرية والكتابة المسمارية لكونهما مادة هذا العلم والمصدر الذي يستقي منه موضوعه متمنين ان ننجح في إبراز ذلك .

تعريف علم الآشوريات

يعرف علم الآشوريات (the science of Assyriology) : بأنه العلم الذي يهتم بدراسة آثار وكتابات حضارة وادي الرافدين فهو علم آثاري من جهة وتأريخي من جهة اخرى [١].

ويرتبط نشوء هذا العلم بالإهتمام الغربي بالشرق (الإستشراق) الذي بدأ منذ بواكير عصر النهضة الأوربي ، لأن اول رواده وابرز المشتغلين به من اصول اوربية ، وعلى الرغم من ان هذا العلم يعد جزءا من علم التأريخ إلا انه كذلك يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بجملة علوم اخرى ابرزها : علم الأجناس البشرية

[١] ينظر : مار كرون ، جان كلود ، علم آثار بلاد الرافدين ، ترجمة : يوسف حبي ، (بغداد ، ١٩٨٦) .

(Anthroplogy) والعلوم الإنسانية كالأقتصاد والجغرافية والأجتماع ، ناهيك عن العلوم المسماة بالعلوم الموصلة او المساعدة (Auxiliary sciences) ، التي يستعين بها الباحث في فهم مصادره وتقدير قيمتها تمهيدا لنقدها وتقدير إمكانية الإستعانة بها من عدمه ، ومن هذه العلوم : علم الخطوط (Pnronlogy) والكتابة على الحجر والطين (Epigraphy) وعلم اللغات والتقويم (Chronology) وعلم النقود (Numismatics) وعلم الأختام والطمغات (Sphragistics) [٢].

أما العلم الذي له المكانة الأولى في علم الآشوريات فهو علم الآثار (Archaeology)، الذي يعنى بدراسة وتحليل مخلفات الإنسان في الماضي سواء كانت مادية أو فكرية لغرض استجلاء ماضي الإنسان [٣] ، ونظرا لأهمية هذا العلم ومكانته الكبيرة بين العلوم التأريخية والأثرية ، فقد اولته الجامعات والمتاحف ومراكز البحوث اهتماما كبيرا وبذلت له الأموال والجهود ووفرت المختصين حتى غدى بارزا ومرموقا ، يقول احد باحثيه أن هذا العلم " ليس مجديا وحسب ، بل ضروريا لتفهم عادل وشامل لتأريخنا الخاص ، فهو لا يمكن ان يكون مجرد اغناء فكري ، كما انه لا يمكن ان يتوقف كغايته الأخيرة عند مسرتنا الخاصة وعظمة الأكتشاف والتعلم ، انه في خدمتنا لكي يزودنا بأقدم أوراقنا العائلية إذا شئنا ان نراجعها ، ولكي يتوج ما ضينا ويفتح ميلادنا إلى النبع الأول لهذا النهر العظيم الذي يحملنا دوما " [٤].

التنقيبات الآثرية

تعد التنقيبات الأثرية الركن الأول والأساس من اركان علم الآشوريات ، ويقصد بها عملية البحث عن الآثار لأغراض علمية ، وتنقسم التنقيبات الأثرية إلى ثلاث اقسام : التنقيبات العرضية للسياح الأجانب وهي في الغالب تتم بشكل ارتجالي وبالصدفة ، والتنقيبات البدائية أو العشوائية التي قام بها الهواة ، وأخيرا التنقيبات العلمية التي مثلت المرحلة الأخيرة في مسار التنقيبات الأثرية ، وفيما يتعلق بالقسم الأول الذي يوصف مجازا بالتنقيبات فأنه ارتبط بتوافد السياح الأجانب إلى المنطقة منذ بداية عصر النهضة ، ويعد النبيل الإيطالي بترو ديفالة (Pietro de valle) من أوائل هؤلاء السياح ، إذ يرجح انه اول من جلب إلى أوربا نماذج من الخط المسماري [٥] ، ثم تلاه سياح آخرون من جنسيات اوربية مختلفة ، ثم وصلت بعثة دنماركية ارسلت

---

[٢] باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، الطبعة الاولى لدار الوراق ، ٢٠٠٩ ، ص ١١٤ / هامش (٢) .

[٣] ابو الصوف ، بهنام ، ظلال الوادي العريق ، (بغداد ، ١٩٨٧) ، ص ١٠ .

[٤] بوتيرو ، جان ، بلاد الرافدين : الكتابة – العقل – الآلهة ، ترجمة : البير أبونا ، (بغداد ، ١٩٩٠) ، ص ٣٧ – ٣٨ .

[٥] ساكز، هاري ، البابليون ، ترجمة : سعيد الغانمي ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ١٩ .

من قبل ملك الدنمارك لغرض إستكشاف الشرق ، وقد رأس البعثة كارستن نيبور (Karsten Niebuhr) الذي عرف بدقته العالية لا سيما في مجال وصف المباني ورسم مخططات لها ، ومن ابرز اعماله التي كان لها اثر في تطور علم الآشوريات استنساخه نماذج من الكتابات المسمارية التي عثر عليها في اطلال (برسيبولس) عاصمة الأمبراطورية الأخمينية ، فكانت هذه الكتابات الأساس الذي قامت عليه عملية حل رموز الخط المسماري فيما بعد [٦]، وقد مهدت بعثة نيبور لبروز دور وكلاء الشركات التجارية والمقيمين أي ممثلي البعثات الدبلوماسية ، كما برز ايضا دور رجال الدين وابرزهم المبعوث البابوي بوشام (Abbe joseph Beauchanp) في المدة من ١٧٨٥ – ١٧٩٠ ، ومن ابرز اعماله إزاحة الانقاض عن اسد بابل وكشف بعض اجزاء باب عشتار ناهيك عن زيارة العديد من المواقع الاثرية [٧]، وقد ساهمت اعمال بوشام في بث الحماس لدى شركة الهند الشرقية الأنكليزية فأوعزت إلى وكيلها في بغداد كلوديوس ريج (Cludius Rich) إلى ممارسة العمل التنقيبي نظرا لما عرف عنه من اتقان للغات الشرق الادنى وصلاته القوية بالسلطات المحلية واهتمامه بأقتناء الآثار والمخطوطات ، وقد بذل جهدا كبيرا في فحص خرائب بابل كما امتازت مذكراته بالدقة والشمول ، وقد برز ذكائه عندما ميز بين زقورة برس نمرود ومعبد بيل (مردوخ) ، فلم يقع في الخطأ الذي وقع فيه بكنكهام (Games Buskingham) ، ولم يقتصر اهتمامه على آثار جنوب العراق ووسطه بل حاول زيارة مواقع شمال العراق ، لكن بعد سفرة قصيرة توفي بالكوليرا عام ١٨٢١ [٨] ، كما اهتمت بالتنقيب بعثة جسني (Geasny) الأنكليزية التي جاءت بهدف مسح النهرين لمعرفة مدى صلاحيتهما للملاحة للفترة من ١٨٣٥ – ١٨٣٦ لكنها اهتمت بالجانب الأثري أيضا [٩] ، وقد برز من بين افراد هذه البعثة الطبيب الجراح انسورث (Insorth) الذي كان آثاريا هاويا وخبيرا بالجيولوجيا ، فجمع معلومات واسعة عن طبوغرافية وآثار المناطق التي مرت بها البعثة ، كما دون الكثير من المعلومات في ضوء تضلعه بالتوراة وإطلاعه الواسع على كتابات مؤرخي اليونان والرومان [١٠].

---

[٦] باقر ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

[٧] بوستغيت ، نيكولاس ، حضارة العراق وآثاره (تأريخ مصور) ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الجلبي ، (بغداد ، ١٩٩١) ، ص ٣٦ .

[٨] باقر ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

[٩] أبو الصوف، بهنام ، دور التنقيبات الأثرية في الكشف عن حضارة وادي الرافدين ، موسوعة حضارة العراق ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٨٥) ، ص ٦٠ – ٦١ .

[١٠] ساكز ، البابليون ، ص ٢٣ .

ثم حصل اتساع في التنقيبات الاثرية ، ويعد عقد الاربعينات من القرن التاسع عشر بداية لهذا التطور [١١] ، وقد اتسمت تنقيبات هذه المرحلة : ببعدها عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار ، وبكونها اقرب ما يكون إلى النبش لأستخراج الآثار الكبيرة كالمنحوتات ، وبأهمال الآثار الصغيرة مثل ألواح الطين المسمارية ، وكذلك بعدم الأهتمام بتسجيل الطبقات الأثرية والأدوار التأريخية العائدة لها [١٢] ، كما امتازت هذه المرحلة من التنقيبات بإشتداد التنافس الأنكليزي – الفرنسي ، وتدخل القناصل الأجانب في ميدان التنقيبات الأثرية [١٣].

ومن أبرز المنقبين الفرنسيين في هذه المدة بول اميل بوتا (Paul Emile Botta) ، ومن ابرز اعماله استظهار المنحوتات الآشورية من قصر الملك الآشوري سرجون ، نافسه من الجانب البريطاني هنري ليرد (Henry Layard)الذي نقب في نمرود ونينوى في المدة بين ١٨٤٥ – ١٨٤٧ وقام بشحن ما عثر عليه إلى لندن [١٤] ، ثم تابعه مواطنه (Henry Rawlinson) الذي ساعده هرمز رسام وهو رجل من أهل الموصل وقد عرف بأكتشافه لمكتبة قصر الملك الآشوري آشور بانيبال في نينوى [١٥]، وقد كتب ليرد بعد اكتشاف هذه المكتبة " لا يمكن ان نبالغ في قيمتها ، فهي تزودنا بمواد لفك اسرار الكتابة المسمارية على نحو كامل ، من اجل استعادة لغة بلاد آشور وتأريخها والبحث في تقاليد شعبها وعلومه وربما ادبه " [١٦] .

ولم يقتصر التنافس البريطاني الفرنسي على آثار شمال العراق بل امتد إلى جنوبه ايضا ، فقد قام القنصل الفرنسي اميل دي سارزك (Emile de sazec) بالتنقيب في (تلو) في المدة بين ١٨٧٧ ١٨٧٨ ، بعد ان سمع عنها من الأهالي وذلك دون اذن رسمي من الدولة العثمانية ، وغنم آثارا سومرية مهمة باعها إلى متحف اللوفر الفرنسي بمبلغ كبير ، وقد فتحت تنقيباته الباب لإكتشاف الحضارة السومرية التي ازدهرت في جنوب العراق ولفتت انظار المنقبين الآخرين إلى هذه المنطقة ، إذ ما ان غادر المنطقة حتى قدم رسام ليقوم بالتنقيب فيها لصالح المتحف الانكليزي [١٧] .

وفي عام ١٨٧٧ ظهر منافس آخر لمتاحف أوربا انه (حمدي بيك) نجل احد رؤساء الوزارات العثمانيين وقد ساهم في تأسيس المتحف الأمبراطوري العثماني في اسطنبول وعين اول مدير له ، وساعد في اصدار اول نظام للآثار في الدولة العثمانية

---

[١١] باقر ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .
[١٢] باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ١٣٥ .
[١٣] المصدر نفسه ، ص ١٣٥
[١٤] المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .
[١٥] بوستغيت ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .
[١٦] باقر ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
[١٧] ابو الصوف ، موسوعة حضارة العراق ، ج١ ، ص ٦٥ .

ساعد على وصول كميات كبيرة من الآثار إلى المتحف العثماني عن طريق القسمة مع البعثات الاجنبية [١٨] ، كما دخلت الولايات المتحدة ميدان التنقيب ابتداءا من بعثة جامعة بنسلفانيا عام ١٨٧٧ برئاسة بيترز (Peters) ومساعده هلبرشت (Hilperecht) ، وقامت بالتنقيب في مدينة نفر بالقرب من عفك في جنوب العراق ، وقد استخرجت عشرات الآلاف من رقم الطين المسمارية منها نماذج من الأدب السومري ، وقد استمرت تنقيبات البعثة مع بعض الإنقطاعات إلى عام ١٩٠٠ [١٩].

ثم دخلت التنقيبات الأثرية مرحلة جديدة بدخول الألمان إلى ميدانها ، فقد اوجد روبرت كولديفي (Robert Koldewe) في بابل(١٨٩٩ – ١٩١٧) وفالتر اندراي في آشور (١٩٠٣ – ١٩١٤) تكتيكا صارما في شدة التدقيق في التفصيلات وفي تسجيل الطبقات الآثرية وتوثيق المكتشفات الأثرية ، وسرعان ما تم تبني الطريقة الألمانية من قبل المؤرخين الآخرين ، وخلال السنوات العشرين الممتدة بين الحربين عملت في العراق الكثير من البعثات الأثرية ومن جنسيات مختلفة ، فبينما كان وولي (Wolley) ينقب في أور ومقبرتها الملكية ، كان هاينرخ (Heinrich) وجماعته ينقبون في اوروك ، واندريه بارو في ماري ، والانكليز في العبيد ونينوى والاربجية ، والأمريكان والبريطانيين مشتركين في كيش وجمدة نصر [٢٠].

لكن في المدة التالية شهد التنقيب عن الآثار انحسارا كبيرا ويعزى ذلك إلى تعديل قانون الآثار العراقي بألغاء حق البعثة الأجنبية في الحصول على نصف اللقيات المتطابقة ، كذلك ارتفعت تكاليف العمل في العراق بعد ١٩٥٨ ارتفاعا فاحشا ما منح الافضلية للمواقع الصغيرة التي تمتاز بأن الطبقات الإستيطانية فيها ليست مغطاة بشكل كثيف بأطلال المراحل اللاحقة لها ، أما العامل الآخر فهو رغبة السلطات العراقية في تأهيل الموقع الاثري ليكون مكانا سياحيا ما جعلها تلزم البعثات بترميم الموقع فور الانتهاء من التنقيب ، وهو امر تجده البعثات مكلف ماديا لا سيما فيما يخص المواقع التي تشتمل على بنيات ومنحوتات كبيرة [٢١]، اما الأمر الحاسم في تراجع التنقيب الأثري فتمثل بالظروف التي شهدها البلد منذ عام ١٩٩١ وإلى الآن [٢٢].

---

[١٨] باقر ، المصدر السابق ، ١٣٧ .
[١٩] باقر ، المصدر السابق ، ١٣٧ .
[٢٠] رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ٥٩
[٢١] ساغز ، هاري ، عظمة آشور ، ترجمة : خالد اسعد عيسى واحمد غسان سبانو ، ط١ ، (دمشق ، ٢٠٠٨) ، ص ٤٨٥ .
[٢٢] هاري ساكز ، البابليون ، ص ٣٣ .

الكتابة المسمارية

تعد الكتابة المسمارية الركن الثاني من أركان علم الآشوريات ومنها يستقي الباحثون معلوماتهم عن تأريخ بلاد الرافدين ، أما تسميته بالخط المسماري فقد انبثقت عام ١٧٠٠ من قبل المؤرخين الانكليز الذين تبنوا كلمة (Cuneiform) المشتقة من اللاتينية للإشارة إلى الخط الذي دونت به تلك النصوص القديمة ، فيما فضل الألمان تسميته بـ (Keilschrift) أي الكتابة بالأسافين [٢٣].

أما حل رموز الخط المسماري فتطلب جهودا كبيرة دامت اكثر من مائة عام وشارك فيه باحثون وعلماء من كثير من دول العالم ، ويعد كارستن نيبور أول من مهد لحل الخط المسماري بعد ان عكف على دراسة النصوص التي جلبها من العاصمة الفارسية القديمة برسيبولس ، وقد بين اولا ان الكتابة على هذه النصوص تبدأ من اليسار إلى اليمين وان كل نص يحتوي على ثلاث نماذج مختلفة من الكتابات ، صنف إلى صنف (أ) وصنف (ب) وصنف (ج) ، كما بين ان صنف (أ) يمثل كتابة ابجدية لأنه يضم ٤٢ علامة ، لكنه اخطأ عندما عد الاصناف الثلاث اشكالا مختلفة للغة واحدة ، وقد لاحظ مواطنه فريدريش مونتر (Friedrich munter) ان الصنفين الآخرين يمثلان كتابة مقطعية وصورية ، ولاحظ ايضا ان كل صنف يمثل كتابة مختلفة [٢٤]، لكن النجاح في الوصول إلى الهدف يتطلب جهودا إضافية ، ومن التطورات التي ساعدت في تسهيل هذه المهمة نجاح الباحث (A.H. Anguetil Dupeerron) في حل وتفسير رموز الكتابة الفارسية القديمة (لغة الأفستا) بعد جهد دؤوب بذله في الهند ، وقد قام بنشر ابحاثه بين عامي ١٧٦٨ و ١٧٧١ ، ومن ابرز ما قدمه هذا الاكتشاف على طريق حل رموز الخط المسماري إعطاء صورة عما يمكن ان تكون علية الفارسية القديمة في نصوص برسيبولس وهي لغة مختلفة في نواحي كثيرة عن لغة الافستا الفارسية ، وقد اكتمل هذا التطور بعد النجاح الذي حققه (A.l. Silvestre de Sacy) في ترجمته للنصوص البهلوية التي تعود لفترات متأخرة عن نصوص برسيبولس إلا انها عدت نموذجا ثابتا لما كانت عليه الفارسية القديمة [٢٥]، وفي عام ١٧٩٨ خطا (Oulf Gerhard Tgchsen) خطوة مهمة اخرى عندما لاحظ ان إحدى العلامات تكرر ظهورها عدة مرات فعرف انها كانت تستخدم لفصل الكلمات بعضها عن بعض ما جعل بالإمكان تحديد بداية ونهاية كل كلمة ، لكنه مع ذلك لم يحرز تقدما اكبر في فك شفرة هذه الكتابة كما اخطأ في

---

[٢٣] ساكز ، البابليون ، ص ١٩ .

[٢٤] كريمر ، صوموئيل ، السومريون : احوالهم – عاداتهم – تقاليدهم ، ترجمة : فيصل الوائلي ، (الكويت) ، ص ١٤ .

[٢٥] كريمر ، السومريون ، ص ١٤ – ١٥ .

تحديد زمنها عندما خمن انها تعود للفترة البارثية [٢٦] ، لكن فردريش مونتن قد حدد في نفس العام زمن هذه الوثائق مبينا انها تعود للعهد الاخميني ، وهو امر مهم على طريق اكمال مشوار حل رموز هذه الكتابة دون ان يحقق تقدما آخر .

أما النجاح الاكبر في هذا المجال فهو الذي تحقق على يد غروتفيند (GeorgeFrierich Grotefend) الالماني عندما تمكن عام ١٨٠٢ من فك شفرات الصنف (أ) من أصناف نيبور وتخمينه الصحيح لعدة علامات من النصوص الاخرى [٢٧]، وفي المدة بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٧ قام الضابط البريطاني رولنسون بزيارة صخرة (بهستون) المكتوبة بثلاث لغات وهي الفارسية القديمة والعيلامية والأكدية ، وتمثل نصا يعود للملك داريوس (دارا الأول) يذكر فيه انتصاره على الثورات التي شهدتها الأمبراطورية الأخمينية في مستهل حكمه ، وقد نجح رولنسون في إكمال نسخ النصين الفارسي والعيلامي إلا انه فشل في إكمال نسخ النص البابلي ، ما اضطره إلى بذل محاولة اخرى بعد تعيينه مقيما في بغداد من قبل شركة الهند الشرقية حيث نجح في عام ١٨٤٧ من إكمال نسخ النص البابلي بمساعدة فتى كردي جريء ، ثم تمكن بمساعدة رولنسون من نقل الترجمة البابلية لما كتبه داريوس الاخميني [٢٨] .

كما تم التوصل بعد جهود كبيرة إلى ان إحدى الكتابتين الأخريتين تنطوي على (١١١) علامة مسمارية وقد دونت بها قلة من النصوص التي عثر على اغلبها في جنوب غرب ايران [٢٩] ، وقد اكتمل حل هذه الكتابة عندما نشر ايدوين توريس عام ١٨٥٣ الصيغة العيلامية من مدونة بهستون [٣٠] ، أما فيما يخص النص الثالث الأكثر تعقيدا فقد واجهت الباحثون صعوبات كبيرة لما تتميز به هذه الكتابة من تعقيد ، وقد افصح رولنسون عن خيبة امله ونفاذ صبره عندما ذكر " انني حاولت مرات عديدة ان اتخلى مرة وإلى الأبد عن الدراسة ، لأنني كنت قد فقدت اخر خيط من الأمل في الوصول إلى أي نتائج إيجابية مهما كانت زهيدة " [٣١] ، لكن من حسن حظ علم الآشوريات أن رولنسون تغلب على يأسه وتمكن في عام ١٨٥٠ من ان يحدد القيم الصوتية لأكثر من (١٥٠) علامة مسمارية ومعاني حوالي (٢٠٠) كلمة من النص الثالث الذي اصبح من الواضح انه مدون بلغة سامية [٣٢] ، وفي نفس العام

---

[٢٦] كريمر ، السومريون ، ص ١٥ – ١٦ .
[٢٧] كريمر ، المصدر السابق ، ص ١٦
[٢٨] بوستغيت ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .
[٢٩] ساكز ، البابليون ، ص ٢١ .
[٣٠] دوبلهوفر ، ارنست ، رموز ومعجزات (دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة) ، ترجمة : عماد حاتم ، ط١ ، (دمشق ، ٢٠٠٧) ، ص ٣٩ .
[٣١] دوبلهوفر ، المصدر السابق ، ص ١٤٣ .
[٣٢] علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر اسطورة وملحمة ، (بغداد ، ٢٠٠٠) ، ص ٢٠ .

عبر هنكس عن شكوكه في ان يكون الساميون هم الذين ابتدعوا الخط المسماري لأن هذا الخط لا يلاؤم في كثير من الحالات طبيعة اللغة الآشورية (السامية) ، كما كان مفاجئا للأوساط العلمية حين اعلن رولنسون في عام ١٨٥٥ عن عثوره في تل لارسا (السنكرة) على لوح مدون بلغة مجهولة ارسله إلى المستشرق (Loftus) ، وبعد سنة من ذلك بين هنكس ان هذا النص مدون بلغة ملصقة (Agglutinative) [٣٣]، وقد كتب ليرد عن ذلك في عام ١٨٥٣ " لقد تحقق تقدم كبير في فك رموز الكتابة المسمترية ونحن مدينون في ذلك إلى العالمين الأنكليزيين العقيد رولنسون والدكتور هنكس " ثم اضاف انه " يدرك ان عدة علماء فرنسيين بارزين قد اسهموا في نجاح فك رموز الكتابات الآشورية " [٣٤]، ولتبديد الشكوك حول حقيقة هذا الأنجاز قامت الجمعية الآسيوية الملكية في عام ١٨٥٧ بأجراء اختبار اشترك فيه أربعة من علماء الآشوريات هم : رولنسون وهنكس وفوكس تالبوت والفرنسي اوبيرت ، أعطي لكل واحد منهم نسخة من نص يعود للملك تجلات بلاسر الاول اكتشف عام ١٨٥٣ في مدينة آشور (الشرقاط) وطلب منهم كل على حدة ترجمة النص ، فأرسلوا في ظروف مختومة ترجماتهم لذلك النص ، وبعد فحص الترجمات من قبل الجمعية الاسيوية تبين وجود تطابق مطمئن بين الترجمات الاربع ، الامر الذي ادى إلى اعتراف الأوساط العلمية بظهور علم جديد هو علم الآشوريات [٣٥] .

أما حل رموز اللغة السومرية فيعود الفضل فيه إلى اكتشاف مكتبة آشور بانيبال التي تضم ما يقارب ٢٠ ألفا من الالواح المسمارية ، منها معاجم لغوية كان من الواضح انها ألفت لمساعدة الناطقين بالأكدية (اللهجة الآشورية) على معرفة تلك اللغة المجهولة ، وقد ظن رولنسون خطأ ان هذه اللغة هي الاكدية أستنادا إلى لقب سومر واكد الذي يتلقب به الكثير من ملوك وادي الرافدين ، ولم يتم التوصل إلى أصحاب هذه اللغة إلا عام ١٨٦٩ عندما خمن أوبيرت (Oppert) أن لفظة اكد تدل على الأقوام السامية من آشوريين أو بابليين ، فيما ان لفظة سومر تدل على الشعب الآخر الذي قطن وادي الرافدين والذي تكلم بتلك اللغة المجهولة ، وقد واجهت هذه الفرضية بعض الانتقادات إلا أنه في النهاية تم التسليم بها بعد الكشف عن مجموعة ثمينة من الآثار السومرية اثناء تنقيبات البعثة الفرنسية في لكش ، وقد استكملت البعثة الأمريكية العاملة في نفر عام ١٨٨٧ تأكيد هذا الأمر بعد كشفها آلاف الرقم الطينية المدونة بهذه اللغة [٣٦] .

---

[٣٣] علي ، سومر اسطورة وملحمة ، ص ٢٠ – ٢١ .
[٣٤] بوستغيت ، المصدر السابق ، ص ٤١ .
[٣٥] المصدر نفسه ، ص ٤١ .
[٣٦] علي ، سومر اسطورة وملحمة ، ص ٢١ .

لقد بلغت عملية فك رموز اللغة الأكدية التي بدأت خطواتها الجدية منذ عام ١٨٠٢ مشارف نهايتها عام ١٨٤٧ ، بحيث لم تحل سنة ١٩٠٠ حتى اصبح بالإمكان فهم اللغات الاخرى لوادي الرافدين وبضمنها اللغة السومرية بشكل كبير [٣٧] .

لقد اعطى العالم الكبير ثورن دانجن في عام ١٩٠٥ البرهان القاطع على وجود السومريين وعلى استكشاف لغتهم عندما قدم كتابه الشهير (كتابات سومر واكد) والذي تضمن ترجمة متناسقة ودقيقة تتيح وضع تصور واضح للغة السومرية اجمالا [٣٨] ، لكن هذا لا يعني ان علم الآشوريات قد توقف عن تقديم المفاجآت فبحسب احد علماء الآشوريات أنه " بخلاف ما حدث في مصر حيث تأكدت القراءة التمهيدية لتأريخها القديم ولم تبقى إلا صعوبات طفيفة في المادة اللغوية ، فإنما علماء الآشوريات لم ينتهوا من مفاجآتهم مع هذه الكتابة المسمارية الذكية جدا ، فأن ردة الفعل المتتابعة التي بدأها غروتفند من الفارسية القديمة إلى العيلامية إلى كلتيهما إلى الأكدية كانت ستتواصل " [٣٩] .

آفاق علم الآشوريات

على الرغم من مرور اكثر من ثلاثة قرون على بداية اكتشاف حضارة وادي الرافدين واكثر من مائة وخمسون سنة على حل رموز الخط المسماري ، وعلى الرغم من حل معظم الألغاز والمشاكل التي أثارها علم الآشوريات خلال هذه المدة الطويلة ، مازال هذا العلم مغريا على البحث والتوسع ويعزى ذلك إلى أمرين أساسيين :

(١) وجود آلاف المواقع الأثرية التي تنتظر التنقيب وهي متوزعة على عموم المنطقة التي شملتها حضارة وادي الرافدين [٤٠].

(٢) بقاء عشرات أو مئات الآلاف من الرقم الطينية بدون ترجمة [٤١] ، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها علماء المسماريات خلال المدة الماضية ، والتي ادت

---

[٣٧] بوستغيت ، المصدر السابق ، ص ٥٨

[٣٨] بوتيرو ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

[٣٩] المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

[٤٠] سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، (الموصل ، ١٩٩٣) ، ص ٣٥٩ .

[٤١] يقدر جان بوتيرو عدد الالواح المسمارية المكتشفة بحدود نصف مليون لوح فيما يقدر المرحوم طه باقر عددها بحدود المليون ، انظر : بوتيرو ، المصدر السابق ، ص ٣٣ ؛ باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٤ .

إلى أمتلاكنا معلومات وفيرة عن حضارة وادي الرافدين بمختلف ادوارها الحضارية .

وبالتالي مادامت هناك مواقع غير مكتشفة أو منقبة ناهيك عن تلك التي لم يتم كشف معظم اسرارها ومادامت هناك الواح طينية تحتاج إلى ترجمة ، فأن علم الآشوريات سيبقى علما ذا جدوى لعقود عدة قادمة ، وسيحضى بمكانة رفيعة في الجامعات ومراكز البحوث يؤكد ذلك احد علماء الآشوريات بقوله " يجب على عالم الآشوريات عدم التخوف في ان دوره سيكون عاديا في مثل هذه المشاركات بل يجب عليه ان يعرف بأنه يحمل مفاتيح ثروة من المعلومات تغطي فترة تربو على الالفي سنة لحضارة تعتبر اولى الحضارات " [٤٢].

ان الدور الذي تمارسه الجامعات ومراكز البحوث العلمية في مجال أثراء علم الآشوريات ، لا يقتصر على مجرد تقديم الدراسات والبحوث ذات الصلة بل وعلى توسيع معرفتنا بأسرار تلك الحضارة التي يتناولها هذا العلم ، ولعل المؤتمرات العلمية لعلماء الآشوريات ابرز دليل على وجود إمكانيات كامنة في موضوع هذا العلم يمكن ان تحدد مستقبلا باهرا وعمرا مديدا لهذا العلم الأصيل .

الخاتمة

نستنتج من ذلك : أن علم الآشوريات هو علم مهم ، ليس لأنه يطلعنا على جانب من تأريخ البشرية القديم وحسب ، بل ولأنه يقدم لنا صورة مثلى لأولى التطورات البشرية وأولى الخطوات الحضارية لبني الإنسان ، كما يبرز لنا أن النتاج البشري ليس حكرا على مجموعة بشرية معينة بل هو عام لكل البشر ، وأن الجهود التي بذلها علماء من مختلف بلدان العالم هو تأكيد ليس على اهمية هذا العلم كأحد العلوم التأريخية وحسب بل وعلى وجود ادراك بأن دراسة هذا العلم والتخصص فيه هو واجب من يملك الرغبة والإمكانية بغض النظر عن بلده وانتماءه ، وعلى الرغم من ان علم الآشوريات قد استكمل اغلب مقومات وجوده من اكتشافات اثرية وإمتلاك مادة لغوية إلا انه مازال مغريا على البحث والدراسة لوجود مواقع اثرية تستبطن الكثير من الآثار الدفينة وتوفر اعداد وفيرة من الرقم المسمارية التي تتطلب جهودا كبيرة قبل الكشف عن مكنونها وما تتضمنه من معلومات تزيد من معرفتنا بتأريخ وتراث وادي الرافدين .

[٤٢] أوينهايم ، ليو ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة : سعدي فيضي عبد الرزاق ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ٣٨ .

أكتسبت أرض النجف مكانتها الكبيرة من إستيطان الأمام علي بن أبي طالب بالقرب منها ودفنه فيها ، إذ أصبح مرقده مزارا للناس ومكانا للدرس ، وقد أزداد أقبال الناس للدراسة في مدارسها الدينية بعد تطور منطقة النجف وتحولها إلى مدينة مزدهرة .

في هذه الدراسة سنحاول الذهاب إلى أبعد من ذلك ، إلى دراسة مكانة أرض النجف في حضارة بلاد الرافدين ، إذ كان لهذه المنطقة أهميتها البالغة في مسيرة الحضارة العراقية القديمة ، ليس فقط في الجوانب العسكرية والاقتصادية ، بل وفي الجوانب الروحية أيضا ، لذا نأمل أن نوفق في إظهار أهميتها وبيان العوامل التي أسهمت في إعطائها هذه الأهمية .

أهمية منطقة النجف في حضارة بلاد الرافدين

كان لمنطقة النجف أهمية في حضارة بلاد الرافدين ، إذ يرتبط ذلك بعوامل عدة أهمها :

أولا : الموقع

تقع النجف على أطراف السهل الرسوبي بمحاذاة صحراء الجزيرة العربية [١]، إذ كانت هذه المنطقة – أي الجزيرة العربية – موطنا لكثير من الأقوام التي سكنت العراق والتي يطلق عليها بالأقوام السامية (نسبة إلى سام بن نوح) أو الجزرية (نسبة إلى الجزيرة العربية) [٢]، والتي تصل إلى السهل إما على شكل هجرات سلمية أم غزوات حربية عدها العراقيون القدماء إبتلاء سماوي نظرا لكثرة آثامهم ، وهذا ما أعطى لهذه المنطقة أهمية دينية في نظر العراقيين القدماء .

وعلى الرغم من قرب منطقة النجف من الصحراء ، فإنها لم تكن منطقة صحراوية خالصة ، لمحاذاتها للسهل الرسوبي الذي جعلها إمتدادا له حضاريا وسياسيا ، خاصة بعد أن أصبحت هذه المنطقة أكثر خصوبة من مناطق السهل الرسوبي ، لاسيما في المناطق الواقعة على نهر الفرات الذي يمر في هذه المنطقة ، فكان من شأن ذلك انتقال الزعامة السياسية إليها بسيادة مدينة بابل التي تقع في هذه المنطقة ، رافقها

---

[١] باقر، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٣٨ .
[٢] رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ٢٠٢ – ٢٠٨ .

إنتقال الزعامة الدينية التي أستمرت لقرون عدة قبل أن تتحول هذه الزعامة إلى مدينة النجف ذاتها بعد دفن الإمام علي فيها وتحولها إلى مدينة تدرس فيها العلوم الدينية .

ثانيا : العامل الجغرافي

ويتمثل بظاهرتين مهمتين هما :

أ- بحر النجف وهو منخفض كبير يمتد على مسافة طويلة تقدر بعشرات الكيلو مترات أو بحدود (٨٩ ألف دونم) وهو يفصل ما بين الأقليم الصحراوي الفقير من جهة الغرب والأقليم السهلي الخصب من جهة الشرق [٣] ، ومن ثم هو يمتاز بأهمية اقتصادية تتمثل بكونه من المناطق التي يمارس فيها النشاط الزراعي لاسيما في أجزاءه الشرقية المحاذية للسهل الرسوبي كما يعد مركزا ملحيا دائما وموقعا تتوافر فيه الخصائص السياحية التي تتمثل بتوافر المياه ووجود الخضرة و بساتين النخيل[٤] ، وعلى الرغم من ان هذا المنخفض أصبح جافا الآن ، إلا أن المعتقد أن المياه كانت تغطيه من حين لآخر ، ومن هنا جاءت تسميته ببحر النجف [٥] ، ونعتقد أن هذا المنخفض كان كذلك في العصور القديمة ، وكان غالبا يتميز بالجفاف ، ولذا أطلق عليه العراقيون القدماء تسمية (كور) أي الأرض السفلى أو العالم الأسفل [٦] ، وأصبح في نظرهم المكان الذي تذهب إليه أرواح الموتى .

ب- مرتفعات النجف

تحيط بالنجف عدة تلول يطلق عليها الطار [٧] ، وهي تسمية عراقية قديمة من اللفظة السومرية (كار) التي تعني ميناء أو محطة ، وقد أستفاد سكان المنطقة من وجود هذه التلول في الحصول على الحجارة التي تستخدم في البناء فضلا عن إعتماد مغاراتها كبيوت أو ملاجيء أو مواقع دفاعية [٨] ، كما استغلت من قبل المؤمنين في جعلها أماكن للعبادة ، فضلا عن تشييد الأديرة والكنائس بالقرب منها ، حتى يمكن عدها أكثر المناطق كثافة في عدد الأديرة والكنائس التي بلغت بحسب الدراسات أكثر

---

[٣] الجنابي ، عبد الزهرة وإنتصار لازم الخفاجي ، بحر النجف دراسة في الجغرافية التاريخية ، نشر ألكتروني ، ص ٢ .
[٤] المصدر نفسه ، ص ٤ .
[٥] المصدر نفسه ، ص ٨ .
[٦] حول هذه التسمية أنظر : حنون، نائل ، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٧٤ .
[٧] الزيدي ، أبا ذر راهي ، سلسلة كهوف الطار - دراسة في ضوء التحريات والتنقيبات الأثرية ، مجلة مركز دراسات الكوفة ، العدد (٥٣) ، ٢٠١٩ .
[٨] الزيدي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٦ .

من (٣٣) ما بين دير أو كنيسة [٩]، وهذا عدد كبير في منطقة صغيرة نسبيا ، ونظرا لوجود هذه المرتفعات التي تختلف جذريا عن تضاريس جنوب العراق ، فقد تخيلها العراقيون القدماء مكانا وسطا بين السماء والأرض يمكن للقوى السماوية النزول إلى الأرض بوساطتها .

ثالثا : العاملين السياسي والاقتصادي

شهدت هذه المنطقة أرتفاعا في أهميتها السياسية والأقتصادية والدينية بعد سقوط أور في عام ٢٠٠٦ ق.م وسيطرة الآموريين الجزريين على مقاليد الأمور في البلاد فبعد أنتقال العاصمة الدينية من جنوب العراق حيث مدينة أريدو الواقعة جنوب الناصرية [١٠] ، تحول المركز الديني والحضاري إلى مدينة نفر التي تقع أطلالها في محافظة الديوانية [١١] ، كما حصل تغيير آخر بعد سقوط سلالة أور الثالثة في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، تمثل بتحول الزعامة السياسية من السومريين إلى الساميين ، إذ رافق ذلك انتقال العاصمة الدينية إلى الشمال من مدينة نفر ، حيث مدينة بابل العاصمة السياسية للبلاد فأصبح لتقاليدها الدينية الأولوية على تقاليد البلاد الأخرى [١٢] ، فكانت بابل وعلى مدى ألفا سنة مدينة دينية وعاصمة سياسية للبلاد في الوقت نفسه .

بماذا تتمثل أهمية منطقة النجف في نظر العراقيين القدماء ؟

١- الإعتقاد بإنها مكان العالم الأسفل الذي تذهب إليه أرواح الموتى

من النظريات التي نميل إليها أن العراقيين القدماء كانوا يعتقدون أن العالم الأسفل الذي تذهب الأرواح إليه بعد موتها يقع في المنطقة التي يطلق عليها حاليا النجف ، فهي منطقة مقفرة لا زرع فيها ولا ماء تقع إلى الغرب من بلاد سومر وأكد ، يفصلها عن العالم المعمور نهر كبير لا يمكن للأرواح عبوره إلا بمساعدة قارب معد لهذا الغرض ، إذ ورد ذلك في أسطورة يتيمة هي أسطورة (نفي أنليل إلى العالم الأسفل) بعد إقدامه على أغتصاب الفتاة (سود) التي أصبحت زوجته فيما بعد [١٣] ، كما ورد مثل هذا الوصف للعالم الأسفل في أسطورتي نزول عشتار وأنكيدو إلى العالم الأسفل

---

[٩] حول ذلك ينظر : النجف مدينة الكنائس والأديرة للمسيحين قبل ١٤٠٠سنة ، تحقيق : حيدر حسين الجنابي ، موقع بطريركية بابل للكلدان في العالم على الموقع الألكتروني http://saint-adday.com/?p=1437 .

[١٠] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ حضارة بلاد الرافدين ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ج١ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٢ .

[١١] باقر ، طه وآخرون ، تاريخ العراق القديم ، ج٢ ، (بغداد ، ١٩٨٠) ، ص ١٢ .

[١٢] ساكز ، هاري ، الحياة اليومية في العراق القديم ، ترجمة : كاظم سعد الدين ، (بغداد ، ٢٠٠٠) ، ص ٣٦ – ٣٧ .

[١٣] الشواف ، قاسم ، ديوان الأساطير ، الكتاب الأول ، (بيروت ، ١٩٩٦) ، ص ٣٩ – ٤٨ .

[١٤] ، أما كيف أقرن العراقيون القدماء هذه المنطقة بالعالم الأسفل ، فهذا ما يرتبط بملاحظتهم لجغرافية هذه المنطقة وتضاريسها ، فهي عبارة عن صحراء شاسعة مخيفة ممتلئة بالأفاعي والعقارب والضواري ، يقع في وسطها منخفض كبير هو (بحر النجف) ، لا يمكن للإنسان النزول إليه من دون ان يتعرض للمخاطر الكبيرة ، إذ يفصلها عنه نهر كبير هو نهر الفرات لا يمكن عبوره إلا بالقوارب ، ونظرا لإن ما وراء هذا الجزء من الفرات صحراء مقفرة شاسعة ، فقد تخيلوها أرضا لا يمكن أن تعيش فيها سوى أرواح الموتى ، أما الأحياء فلا يمكنهم العودة سالمين فيما إذا ذهبوا إليها ، لذا أطلقوا عليها أرض اللاعودة [١٥] ، لقد بقيت هذه النظرة إلى ما بعد أفول حضارة بلاد الرافدين في مستهل العهد المسيحي ، إذ فضل اليهود والمسيحيين إقامة أديرتهم وكنائسهم فضلا عن الدفن فيها [١٦] ، كما دفن الإمام علي (ع) فيها ، ومن ثم أصبحت مكان الدفن الرئيسي لأتباع المذهب الجعفري .

٢- الإعتقاد بإن فيها المكان الذي يصل السماء بالأرض

إذ أطلق العراقيون القدماء على أرض بابل التي تشمل أطرافها الغربية منطقة النجف تسمية : (باب أيلو) أي باب الإله [١٧] ، لأن بوساطتها تنزل الكائنات السماوية إلى الأرض ، فهي أشبه بالبوابة أو السلم السماوي الذي قام العراقيون القدماء بمحاكاته ببناء الأبراج المدرجة ومنها برج بابل الذي ورد ذكره في التوراة وكيف قام الناس ببناءه بما نصه : " وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنًا ونشويه شيًا، فكان لهم اللبن مكان الحجارة، وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض " [١٨] ، كما اعتقد العراقيون القدماء بإن هذه الأرض هي المكان الذي تقام فيه الإجتماعات السماوية لتقرير ما يجب عمله على الأرض أو هي المقابل الأرضي لمكان الإجتماع السماوي .

---

[١٤] حول نزول عشتار إلى العالم الأسفل أنظر : علي ، فاضل عبد الواحد ، عشتار ومأساة تموز ، (بغداد ، ١٩٨٦) ؛ أما نزول أنكيدو فأنظر : باقر ، باقر ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن جلجامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٧٣ – ١٧٦ .

[١٥] حول وصف العالم الأسفل في حضارة بلاد الرافدين أنظر : باقر وآخرون ، تاريخ العراق القديم ، ج٢ ، ص ٢٣ – ٢٦ .

[١٦] بابو إسحاق ، رفائيل ، مدارس العراق قبل الإسلام ، (لندن ، ٢٠٠٦) ، ص ١٣٥ – ص ١٤٢ و ص ١٦٨ – ١٧٠ .

[١٧] حول تسمية باب أيلو (باب الإله) أنظر : قاموس الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية - الصفحة ١٥٢

[١٨] التوراة ، ٢: ٤ .

ومما يؤكد انها بوابة السماء في نظر العراقيين القدماء ، أنها شهدت نزول الكائنات السماوية لمباركة نوح البابلي (أوتو – نبشتم) بعد نجاته من الغرق مع مرافقيه في السفينة من الحيوانات والنباتات ، إذا أيدنا تلك النظرية التي ترى أن أرض النجف هي المكان الذي رست فيه سفينة نوح البابلي [١٩] ، والملاحظ أن المنطقة المسماة بـ(طار النجف) هي أعلى منطقة محاذية للسهل الرسوبي ومن ثم فهي أول منطقة تنسحب المياه منها ، ما يساعد على رسو السفينة ، إذ أشارت الأسطورة البابلية الخاصة بالطوفان إلى إقامة قربان أو وليمة مقدسة في هذه الأرض حضرتها الكائنات السماوية لمباركة اوتو – نبشتم أي نوح البابلي [٢٠] .

ومن الأدلة الأخرى على مكانة هذا المكان عند العراقيين القدماء ، ما ورد في أحد النصوص عن قيام الملك سرجون الأكدي بأخذ كمية من تراب بابل وإلقائها على المنطقة التي أختارها لتكون مكانا لعاصمته أكد ، وهي منطقة لم يحدد موقعها بعد ، وعلى الأرجح تقع في الأطراف الغربية أو الجنوبية الغربية لبغداد [٢١] .

٣- العامل التعبوي

فهذا المكان هو بوابة بلاد الرافدين الغربية التي يمكن لسكان الصحراء إختراق بلاد الرافدين منها ، ومن ثم جرى الإهتمام بتحصينها كما جرى عندما قام الملك (شو – سين) (٢٠٣٧ – ٢٠٢٩ ق.م) رابع ملوك سلالة أور الثالثة بإنشاء جدار أو سور لحماية أرض الرافدين من هجمات سكان الصحراء ، إذ يرجح بعضهم أن هذا السور ربما أمتد من منطقة هيت إلى مشارف النجف وهذا السور (الطوف) بالسومرية سمي بـ (سور الآموريين) (مورق تدنم) ، لإن هدفه منع تدفق الآموريين إلى بلاد الرافدين ، وهو يمتد لـ (٢٦) بيرو (أي ساعة مضاعفة) [٢٢] ، بحدود (٣٠٠) كيلو متر ، إذ يرجح إنشاء خندق بالقرب منه لوجود إشارة في النص المسماري الذي تناول إنشاء السور إلى كسر ضفاف النهرين دجلة والفرات ، ويرجح المرحوم طه باقر إلى أن هذا السور لم يكن بعيدا عن شمال غرب بغداد ويمتد بين بلد الرمادي الحالية والتلال الكائنة ما بين الفلوجة وبغداد ، وهذا الرأي على أهميته يتناقض مع التقديرات الخاصة بطول السد ، فإمتداده لمسافة ٣٠٠ كيلو مترا يجعل أمتداده أكبر من ذلك ، لاسيما وإن الهدف منه منع تدفق الآموريين من الصحراء إلى بلاد الرافدين ، إذ أن سورا بهذا الإمتداد يسهل الإلتفاف عليه من جانب

---

[١٩] البدري ، سامي ، النجف مرسى سفينة نوح ، مجلة تراث النجف ، العدد ١ ، ٢٠٠٩ .
[٢٠] باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٢٣٩ .
[٢١] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٣٩٥ .
[٢٢] المصدر نفسه ، ص ٤٢٧ – ٤٢٨ .

الأقوام الوافدة لاسيما من جهة النجف وكربلاء ، ما يعني إن منطقة النجف هي على الأرجح الحد الشرقي للسور .

٤- ارتباط المكانة الدينية بالمكانة السياسية والإقتصادية

أدى إنتقال مركز الثقل السياسي إلى هذه المنطقة إلى إنتقال مركز الثقل الديني أيضا ، إذ أصبحت بابل عاصمة سياسية ومركزا دينيا للبلاد ، وهذا ناجم من إعتقاد العراقيين القدماء بترابط المكانة الدينية مع المكانة السياسية والإقتصادية ، ففي نظرهم أن المدينة التي تحظى بالخيرات الوفيرة وبالمركز السياسي الكبير هي مدينة مقربة من السماء ، ومن ثم فهي تستحق أن تكون مدينة مقدسة إلى جانب كونها عاصمة سياسية واقتصادية .

ومن ثم نجد ان انتقال صفة المدينة الدينية من مدينة إلى أخرى ارتبط دائما بعاملين مهمين هما : التغيير السياسي والازدهار الاقتصادي ، فبعد ظهور سلالة اريدو اول سلالة حاكمة في العراق القديم ، تحولت هذه المدينة إلى مدينة دينية [٢٣] ، إذ لعب العامل الاقتصادي دورا كبيرا في أزدهارها لتوسطها الاراضي الخصبة ووجود منفذ لها إلى البحر ساعد على نموها التجاري وتطورها الاقتصادي ، إلا أن إنحرافها عن مجرى الأنهار أدى إلى أندثارها ، لتحل محلها مدينة الوركاء العاصمة السياسية والاقتصادية الجديدة [٢٤] ، التي ما لبثت إلى فقدت أهميتها الدينية لصالح مدينة نفر [٢٥]، بعد ظهور مشكلة الملوحة في منطقة الجنوب وإنقسام البلد إلى وحدات سياسية مستقلة ، الأمر الذي فرض ان تكون لها مدينة دينية تقع في الوسط لتشرف على الوحدات السياسية المحيطة بها ، ثم تحولت القدسية إلى بابل بإزدياد ملوحة الارض الجنوبية وتحول العاصمة السياسية والاقتصادية إلى مدينة بابل التي بقيت مسيطرة على زمام السيطرتين السياسية والدينية إلى أمد طويل [٢٦] ، إلى أن جاء الإسلام فكان إيذانا بظهور مدينة مقدسة ليست بعيدة عن مدينة بابل التي حل الخراب فيها لأسباب سياسية واقتصادية ، ألا وهي مدينة النجف ، إذ كان لإستيطان الأمام علي على مقربة منها ودفنه فيها الأثر الأكبر في ظهورها مدينة مقدسة وذات مكانة كبيرة لدى المسلمين الشيعة .

---

[٢٣] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٢٥٠ .

[٢٤] حبيب ، باسم محمد ، أوروك : نظرة في أسباب وعوامل توسعها السياسي والإقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد) المنشور في مجلة كلية التربية - جامعة واسط (العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر) .

[٢٥] باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ .

[٢٦] القطبي ، مهند عاشور شناوة ، مجمع الآلهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، (رسالة ماجستير) ، (كلية الآداب – جامعة بغداد ، ٢٠٠٠ ، ص ٧١ .

٥- أنها الأرض التي شهدت ظهور ديانة التوحيد

تشير المأثورات الدينية للديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية) إلى أن بلاد الرافدين شهدت ظهور أول دعوة دينية توحيدية وهي دعوة النبي إبراهيم وذلك من مدينة أور كما تذكر التوراة بما نصه : " وأخذ تارح أبرام أبنه ولوطاً بن هاران ابن أبنه وساراي كنته إمرأة أبرام أبنه، فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك " [٢٧]، وعلى الرغم من ندرة أو غياب المصادر التاريخية التي تتناول ذلك إلا أن هناك كثيرا من المعطيات التي تقدم لنا أدلة غير مباشرة على ذلك أهمها : الظروف التي مرت بها أور آنذاك بعد تعرضها لغزو العيلاميين والآموريين وهروب كثير من سكانها والتي يحتمل أنها أساس الهجرة الإبراهيمية [٢٨]، أو أن الهجرة المشار إليها قد حصلت في أثناء الحروب بين سلالة بابل الأولى وسلالة القطر البحري (سلالة بابل الثانية) [٢٩] ، إذ تعرضت أور لهجمات شديدة أدت إلى موت وفرار كثير من سكانها ، ويرجح أحد المؤرخين أن بعض ملوك سلالة القطر البحري كانوا يتسمون بأسماء تدل على إيمانهم بإله واحد ، على الرغم من عدم إنتفاء وجود الديانة القديمة [٣٠]، ولإن سلالة القطر البحري قد حكمت بابل بعد سقوط السلالة الأولى [٣١]، فإن من المحتمل أن مفهوم التوحيد قد وصل إليها أيضا ، إذ شهدت بابل تبوأ مردوخ زعامة الآلهة الذي دعاه بعضهم بالتفريد [٣٢]، وبوجود اعتراف رسمي بمفهوم التوحيد أصبح بإمكان الديانة التوحيدية الشعبية إظهار نفسها وتوسيع وجودها في ميادين عدة ، إذ لم تضعف هذه الديانة حتى بعد هجرة كثير من أفرادها إلى خارج بلاد الرافدين كما أشرنا آنفا .

الإستنتاجات

١- يرى الباحث أن النجف وأن أكتسبت أهميتها الدينية الكبيرة من وجود مرقد الأمام علي بن أبي طالب فيها ، إلا أن ذلك لا يعني أنها لم تكن ذات مكانة و أهمية في حضارة بلاد الرافدين أيضا ، إذ ترتبط أهميتها آنذاك بقيمتها العسكرية فضلا عن قيمتها الأقتصادية والروحية .

---

[٢٧] تكوين ١١:٣١ .
[٢٨] حول سقوط أور ينظر : باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص ٤٣٠ – ٤٣٢ .
[٢٩] حول هذه الحروب ينظر : المصدر نفسه ، ص ٤٧٥ .
[٣٠] نقلا عن : القمني ، سيد ، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول ، (القاهرة ، ١٩٩٠) ، ص ٣٨
[٣١] حول حكم سلالة القطر البحري لمدينة بابل أنظر : السعدي ، حسن محمد محي الدين ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، (أسكندرية ، ١٩٩٨) ، ١٤١ .
[٣٢] القطبي ، مجمع الآلهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، ص ٧١ – ٧٣ .

٢- من العوامل التي منحت منطقة النجف أهمية كبيرة في نظر سكان بلاد الرافدين ، موقعها الجغرافي في الأطراف الشمالية للسهل الرسوبي ومحاذاتها للصحراء التي تعد موطنا لكثير من الأقوام التي سكنت العراق والتي يطلق عليها بالأقوام السامية (نسبة إلى سام بن نوح) أو الجزرية (نسبة إلى الجزيرة العربية) ، والتي تصل إلى السهل إما على شكل هجرات سلمية أم غزوات حربية ، عدها العراقيون القدماء إبتلاء سماوي نظرا لكثرة آثامهم ، وهذا ما أعطى لهذه المنطقة أهمية دينية في نظر العراقيين القدماء .

٣- كان لوجود الظاهرة الجغرافية المسماة بحر النجف أثره في ظهور معتقد يربط ما بين هذه الظاهرة ومفهوم العالم الأسفل لدى شعوب العراق القديم ، نظرا لوجود شبه كبير بين تضاريس هذه الظاهرة الجغرافية وما يعتقدوه عن هذا العالم الذي يتسم بالبعد عن العالم المعمور وبوجود الكائنات المؤذية فضلا عن وقوعه في باطن الأرض .

٤- تخيل العراقيون القدماء أن التلال المسماة بطار النجف التي تختلف جذريا عن تضاريس جنوب العراق ، تمثل مكانا وسطا بين السماء والأرض وبالتالي يمكن للقوى السماوية النزول إلى الأرض بوساطتها .

٥- أطلق العراقيون القدماء على هذه المنطقة التي تشمل أرض بابل (باب أيلو) أي باب الإله ، معتقدين أن بوساطتها تنزل الكائنات السماوية إلى الأرض ، فهي أشبه بالبوابة أو السلم السماوي الذي يربط السماء بالأرض ، مثلما رأوا أن فيها بوابة العالم الأسفل ، أو السلم الذي يربط الأرض بذلك العالم الذي تذهب إليه أرواح الموتى .

٦- كما أدى محاذاتها للأطراف الشمالية الغربية للسهل الرسوبي إلى أن يعدها سكان ذلك السهل بوابة بلاد الرافدين الغربية التي يمكن لسكان الصحراء إختراق بلاد الرافدين منها ، ومن ثم جرى الإهتمام بتحصينها كما حصل عندما قام الملك (شو – سين) (٢٠٣٧ – ٢٠٢٩ ق.م) رابع ملوك سلالة أور الثالثة بإنشاء جدار أو سور لحماية أرض الرافدين من هجمات سكان الصحراء .

٧- شهدت بلاد الرافدين ظهور ديانة التوحيد الحقة في جنوب بلاد الرافدين وهي الديانة الإبراهيمية ، التي يحتمل أنها مرتبطة بتبوأ مردوخ زعامة الآلهة في المدة نفسها ، وبوجود اعتراف رسمي بمفهوم التفريد أو التوحيد ، أصبح بإمكان الديانة التوحيدية الشعبية إظهار نفسها وتوسيع وجودها في ميادين عدة ، مع أنها ربما أنحسرت أو ضعفت كثيرا بعد هجرة كثير من أفرادها إلى خارج بلاد الرافدين .

إنتفاضة أوروك بحسب نص ملحمة جلجامش

على الرغم من أن بلاد سومر شهدت أقدم أشكال الديمقراطية حيث النظام البرلماني الأقدم في التاريخ وبمجلسيه الذي يشابه النموذج الحديث [١]، إلا أن هذا النوع من الديمقراطية لم يكن قادرا على ما يبدو على الحد من سلطات الحكام ومن هيمنتهم السياسية التي أخذت تزداد تدريجيا بفعل التطورات الاجتماعية والحضارية المتلاحقة في البلاد ، فكان لزاما على الشعب أن يواجه حكامه المستبدين للمطالبة بحقوقه وصونا لحريته وكرامته . وأقدم مطالبة تذكرها النصوص المسمارية هي تلك التي أشارت إليها ملحمة جلجامش في معرض تناولها لواقع الحياة في أوروك (الوركاء) أثناء حكم جلجامش ، ما يتيح عدها أقدم إنتفاضة من نوعها في العالم لأنها حدثت في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، إذ هي أقدم من ثورة اوروانمكينا في لكش [٢] والثورة الاجتماعية في مصر [٣] بما لا يقل عن ثلاث قرون ، فهل بإمكاننا أن نعيد كتابة تاريخ الكفاح من اجل حقوق الإنسان لنمد به إلى عهد جلجامش ؟ هذا ما نحاول فعله في السطور التالية .

عهد جلجامش ومصادرنا عن الإنتفاضة

قبل أن نتناول هذه الانتفاضة المهمة لابد أن نشير إلا أننا لا نملك أي وثيقة تاريخية تتناول هذه الثورة ، وليست لدينا معلومات عنها عدى تلك المدونة في ملحمة جلجامش[٤] ، ولأن الملاحم تعد غالبا قصصا أسطورية فأن ذلك يبعدها عن أن تكون وثيقة كاملة ، وفيما يخص ملحمة جلجامش هذا لا يشمل فقط احتوائها على عنصر المبالغة واتصافها بالطابع الأسطوري ، بل ولأن تدوينها تم في مرحلة تالية لعهد جلجامش (حدود أواخر الألف الثالث قبل الميلاد أوائل الألف الثاني قبل الميلاد) ، وهي فترة بعيدة نسبيا عن فترة حكم جلجامش التي يمكن تحديدها بحدود ٢٦٥٠ ق.م [٥]، لكن بإمكاننا التفريق بين الأحداث الملفقة أو الأسطورية والأحداث الحقيقية

---

[١] كريمر ، صوموئيل ، من ألواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، مراجعة وتقديم : احمد فخري ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٨١ – ٨٨ .

[٢] لقراءة نص اوروانمكينا حول إصلاحاته في لكش ينظر : رشيد ، فوزي ، القوانين في العراق القديم ، (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٨ ، ص ١٠ – ٣٣ .

[٣] حول الثورة الاجتماعية في مصر ينظر : السيد ، رمضان عبده علي ، معالم تاريخ مصر القديم ،(القاهرة : مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٦) ص ٢٠٩- ٢١٥ .

[٤] هي ملحمة سومرية مهمة تتناول مغامرات جلجامش ملك الوركاء خلال عصر فجر السلالات السومرية النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد وهي من أقدم الملاحم التي أنتجتها الحضارات القديمة للاطلاع على الملحمة ومعرفة تفاصيل عنها يمكن الاطلاع على المصدر التالي : طه باقر ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) .

[٥] باقر ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، ص ٤١ .

استنادا لعلاقة تلك الأحداث بحبكة الملحمة ومضمونها العام ، فقد أثبتت الحقائق أن الكثير من الأساطير والملاحم تحمل قدرا من الحقيقة وان الكثير من تفاصيلها يمكن ردها إلى أحداث حقيقية ، كما هو الحال مع الملاحم العالمية الشهيرة كملحمتي المهابهارتا والرامايانا الهنديتين وملحمتي الإلياذة والأوديسة الإغريقيتين ، التي أتضح أنها ترتبط بأحداث حقيقية تم التأكد من بعضها بالاعتماد على معطيات الآثار والبحث العلمي ، وملحمة جلجامش ليست مستثناة من ذلك بدليل ما طرحته عن بناء جلجامش لسور الوركاء والذي أثبتت التحريات الأثرية صحته ، بعد العثور على بقيا سور الوركاء وهو مبني باللبن " المستوي – المحدب " ، الذي يميز أبنية عصر فجر السلالات السومرية لا سيما مباني الطورين الثاني والثالث منه [٦]، أي في الفترة التي حكم فيها جلجامش ، ولدينا نص يعود إلى الملك (أنام) ملك الوركاء في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد يؤكد بناء جلجامش لسور الوركاء [٧] ، هذا بالإضافة إلى أطروحة الديمقراطية البدائية التي طرحها الباحث (ثوركليد جاكوبسن) عن الواقع السياسي لبلاد سومر في أوائل عصر فجر السلالات [٨]، والتي تعرض الملحمة صورة عنها خلال النزاع بين (اكا) حاكم كيش وجلجامش حاكم الوركاء [٩] ، عدا ذلك أصبحت حقيقة جلجامش بعيدة عن الشك بفضل حصيلة المعلومات التي تجمعت لدى المؤرخين عن شخصيته ، ومنها إشارة إثبات الملوك السومرية عنه بكونه خامس ملوك سلالة الوركاء الأولى ، على الرغم من المبالغة في سنوات حكمه التي بلغت بحسب الإثبات (١٢٦) سنة [١٠] ، وهي مبالغة لم تقتصر على عهده بل شملت عهود جميع الملوك الذين سبقوه ، ما يعكس ربما اعتقادا لدى الأقدمين بان الناس في السابق كانوا يعيشون أعمارا طويلة ، وفيما يتعلق بهذا الأمر نلحظ اختلافا في اسم والد جلجامش بين الإثبات والملحمة ، ففيما أشارت الملحمة إلى أن اسم والد جلجامش هو (لوكال بندا) الذي هو ثالث ملوك سلالة الوركاء الأولى وزوج ننسون التي أشارت الملحمة إلى كونها أم جلجامش [١١] يذكر الإثبات أن والد جلجامش هو للا (Lulla) [١٢]، الأمر الذي أثار بعض الشكوك عن شخصية جلجامش واحتمال أن لا يكون الشخص المذكور بالإثبات هو نفسه جلجامش بطل الملحمة ، فقد يكونا ملكين مختلفين وان حكما نفس المدينة ، لكن هذا الأمر يمكن حله بالتأكيد على أن (للا) هو صيغة أخرى لاسم والد جلجامش وليس بالضرورة شخصا أخر أو انه اقرن

---

[٦] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٢٨٩ .
[٧] المصدر نفسه ، ص ٤٦٣ .
[٨] جاكوبسن ، ثاركيلد وآخرون ، ما قبل الفلسفة ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، مراجعة : محمود الأمين ، (بغداد ، ١٩٦٠) ص ١٧٥ .
[٩] باقر ، ملحمة كلكامش ، ١٩١- ١٩٥ .
[١٠] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٣٢٢ .
[١١] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٧٦ .
[١٢] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٣٢٢ .

بجلجامش عن طريق الخطأ ، فإذا كان لجلجامش صلة دم بملوك السلالة الآخرين فلابد أن نصدق صلته بـ(لوكال بندا) أحد أسلافه في حكم الوركاء ، سيما مع ورود اسم (أور – ننكال) في الإثبات والملحمة كأبن لجلجامش والذي تم تأكيده من نص تمال ذو الأهمية التاريخية ، اذ أشار النص إلى أن جلجامش وابنه شاركا في تجديد معبد الإلهة ننليل في نفر [١٣] ، وأهمية هذا النص في أنه قدم لنا معلومات مهمة عن بعض الملوك الذين حكموا في عصر فجر السلالات الثاني والثالث أو في المرحلة الأنتقالية بين العصرين .

أسباب انتفاضة أهل أوروك ضد جلجامش

رغم الدراسات العديدة التي تناولت نص ملحمة جلجامش فإن الملحمة مازالت تغري على البحث والدراسة ، إذ أسهمت في إثراء معلوماتنا الاقتصادية والدينية والاجتماعية والسياسية عن العصر الذي حصلت فيه أحداثها ، ولعل مما يعطي للملحمة قيمة خاصة وفريدة وتجعلها في عداد الملاحم التي تحمل ثيمة إصلاحية ، تناولها لحالة الجدل بين مطالب الناس ورغبات الحاكم ، في ظل التحول الكبير في الواقع السياسي والذي أعطى للحكام سلطات اكبر مما كان لدى أسلافهم في عصور السلالات الأولى ، بفعل الظروف السياسية التي كانت تمر بها الدويلات السومرية وما كانت تتعرض له من مخاطر بفعل النزاع مع الدويلات الأخرى حول الأراضي الزراعية وقنوات الري أو مع القبائل والشعوب المجاورة التي كانت تتحين الفرصة من أجل السلب والنهب [١٤]، ما فرض تركيز بعض السلطات في شخص يكلف من قبل مجلس المدينة ليقوم بمهام الحكم ومواجهة المخاطر بقوة وشجاعة [١٥]، ومن ثم تحول هؤلاء الحكام بمرور الوقت إلى سلطة متعالية تنظر إلى الناس من منظار مصالحها وأهوائها ، وليس من منظار المصلحة العامة وحقوق الناس انطلاقا من الطبيعة البشرية الضعيفة والميالة إلى الأثرة و حب الذات ، وفي ظل مغريات السلطة والنفوذ لا يردع الحاكم عن ركوب طيشه وغروره سوى ضميره وأخلاقه ،

---

[١٣] حول نص تمال الذي يعود تدوينه إلى العصر البابلي القديم ينظر : باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات ، ج١، ص ٣٠٦ .

[١٤] حول النزاعات التي كانت سائدة في عصر فجر السلالات ينظر : عبد الله ، هاني عبد الغني ، حركات التحرر في العراق القديم (رسالة ماجستير غير منشورة) ، (كلية الآداب / جامعة الموصل ، ٢٠٠٥) ، ص ٩ – ٢٢ .

[١٥] خير ما يؤكد هذا التحول تغير الألقاب السياسية للحكام ، إذ كان يطلق على الحاكم لقب (أن) الذي يعني السيد وهو لقب له علاقة بالوظائف الدينية ثم تحول اللقب إلى (انسي) أي الأمير والذي قد يعني انفصال السلطتين الدينية والدنيوية وأخيرا ظهر لقب (لوكال) الذي يعطي معنى الملك بالإشارة إلى تزايد السلطات وامتداد النفوذ السياسي إذ عاش جلجامش في فترة الانتقال بين لقب (الإنسي) ولقب (لوكال) الأمر الذي يفسر تلقب بعض الحكام بلقب انسي وتلقب آخرين بلقب لوكال . حول هذه الألقاب ينظر : رو ، جورج ، العراق القديم : ترجمه : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ١٨٧ .

لذا لا غرابة أن يظهر نموذج من الحكام يشبه نموذج جلجامش في الملحمة حيث وصفت الملحمة أفعال جلجامش بقولها :

على ضربات الطبل تستيقظ رعيته

لازم أبطال أوروك حجراتهم ناقمين مكفهرين

لم يترك جلجامش ابنا طليقا لأبيه

لم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار

أهذا جلجامش راعي أوروك المسورة

اهو راعينا القوي الكامل الجمال والحكمة

لم يترك جلجامش عذراء طليقة لامها

ولا ابنة المقاتل وخطيبة البطل [١٦]

وفي ترجمة أخرى للنص :

كان يسوق شباب أوروك (إلى العمل) دون مسوغ

لم يدع كلكامش ابنا طليق لأبيه

ويوما بعد يوم كان طغيانه يزداد قسوة

كلكامش القائد لشعبه المحتشد

ولكن كلكامش لم يدع ابنة طليقة لامها

... لم يدع أي عروس تذهب بحرية إلى عريسها

ولا ابنة المقاتل ولا عروس الشاب [١٧]

ومن خلال تحليل هذا النص نجد أن أفعال جلجامش اتسمت بالنزق والطيش والاستهانة بحقوق الناس بحيث فرض على أهل الوركاء نظاما من الحياة خاضعا لمشيئته ورغباته ، فعلى ضربات الطبل تستيقظ الرعية المغلوبة على أمرها على

---

[١٦] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٧٧

[١٧] قزانجي ، فؤاد يوسف ، ملحمة جلجامش النص الكامل الجديد ، مجلة آفاق عربية ، العدد ٧- ٨ ، ٢٠٠١ ، ص ص ٧٠ - ٧١

الطريقة العسكرية من اجل تلبية رغبات الحاكم وتنفيذ طلباته وأداء بعض الأعمال العامة أو الخاصة بالحاكم ، كبناء المعابد والقصور أو سور المدينة الذي يحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة والذي قلنا انه من عمل جلجامش على وفق ما لدينا من أدلة ، إذ فرض جلجامش على سكان الوركاء كبارا وصغارا نساءا ورجالا ، المشاركة في بناء السور بأسلوب السخرة (أي دون مقابل) على غرار ما كان يفعل الفراعنة مع رعاياهم عند بناءهم للأهرامات [١٨]، وهو أمر لم يعتده السكان من قبل الأمر الذي أثار غضبهم ودفعهم إلى التذمر والثورة . وإذا استرسلنا مع النص واعتبرنا أفعال جلجامش الأخرى حقيقية وليس مجرد إضافة من الراوي غرضها التشويق أو إعطاء جدوى اكبر للثورة ، فان جلجامش قد تجاوز الكثير من الحدود وحطم الكثير من القيم لاسيما عندما يسلب العوائل أبنائها من اجل أن يمارسوا الخدمة في القصر أو يدأبوا على تلبية رغباته الخاصة ، أو ما كان يفعله مع الفتيات العذراوات عندما يقوم بانتهاك شرفهن وسلب عذريتهن بطريقة تنم عن الغطرسة والاستهانة بمشاعر الناس ، فلو كان جلجامش يمارس أمرا مألوفا اعتاد عليه الناس لما تذمروا أو غضبوا ، لكن ما كان يفعله جلجامش كان بلا شك أمرا جديدا ولم يألفه الناس بعد ، لان الاستبداد لم يبرز بغتة بل تطور بالتدريج مع توسع السلطات وتصاعد النفوذ ، إذ بلغ جلجامش في قسوته وجبروته حدا جعل الناس يخرجون عن صمتهم ويبدءوا عملهم لمواجهة هذا الجبروت والطغيان بالأفعال لا بالأقوال .

لكن إلى أي مدى تجاوز جلجامش أخلاق العصر وقيم الناس ؟ وهل يمكن للحاكم في ذلك العصر أن ينتهك الحرمات ويستبيح الشرف بهذا الشكل المشين المثير للمشاعر ؟ لا شك أن الملحمة أجابت عن ذلك عندما بينت غضب الشعب من سلوك جلجامش وتذمرهم من أفعاله ، فلو كان الناس معتادين على هذا السلوك وهذه الأفعال لسكتوا ولما بحثوا عن سبيل للتخلص منه كما هو الحال مع شعوب أخرى ليست بعيدة عنهم ، إلا أن شعب الوركاء المتمدن المعتز بحريته وكرامته كان يأبى هذا الضيم ويرفض هذا الإذلال وهذا دليل على حيوية الشعب واعتزازه بقيمه ، لكن هل كان لطبقة الأبطال (المقاتلين) [١٩] دور في أحداث شرخ بين الشعب وجلجامش ؟ بعد أن أمعن

---

[١٨] يمكننا أن نقرن تسخير الناس في بناء سور الوركاء بتسخير الناس من قبل الفراعنة في بناء الأهرامات لكن وجه الاختلاف أن المصريين كانوا يفعلون ذلك على أساس من العقيدة والإيمان على عكس السومريين الذي يجدونه أمرا مسيئا لحريتهم وكرامتهم للمزيد عن تسخير الناس في مصر القديمة ينظر : سمير ديب ، تاريخ وحضارة مصر القديمة ، (الإسكندرية ، ١٩٩٧) ، ص ٧٤ – ٧٥ .

[١٩] على ما يبدو لم تبرز في العصور السومرية المبكرة طبقة عسكرية خاصة فجميع سكان المدينة القادرين على حمل السلاح كانوا يجندون في أوقات النزاعات ولذلك لم يملك الحاكم أو من يقوم مقامه أي وسيلة تمكنه في التحكم برقاب الناس لكن الأمر تغير في عصر فجر السلالات الثالث أو ربما قبله بقليل عندما حتمت الظروف إنشاء جيش للدفاع عن المدينة إذ أصبح هذا الجيش وسيلة الحكام في الهيمنة والتسلط ، حول هذا الموضوع انظر : دياكونوف ، ظهور الدولة الاستبدادية في العراق القديم ، من كتاب العراق القديم ، مجموعة

جلجامش في إذلالهم أولا عندما أشركهم في أعمال البناء التي تتنافى مع منزلتهم كحماة لأوروك ، وأيضا عندما خاض في شرفهم وعفة بناتهم ونسائهم لكي يرضي غروره ويشبع غرائزه ، وبالتأكيد فان لهذه الطبقة قدرة تتجاوز ما لدى سواها من قدرات نظرا لمعرفتها بفنون القتال وطرق المواجهة ، على الرغم من أنها ربما لم تصل درجة احتراف الجندية التي لم تبرز بشكلها الواضح إلا في الطور الثالث من عصر فجر السلالات .

مظاهر الإنتفاضة

لكن هل حملت هذه الإنتفاضة طابع العنف المسلح ؟ أم اعتمدت النموذج السلمي الذي يرتبط بطابع الحياة السياسية القائمة آنذاك والمبنية على صيغة الديمقراطية البدائية ؟ أن معاينتنا لنص ملحمة جلجامش تدلنا على أن الإنتفاضة قد تبنت المظاهر التالية وفق تسلسل تصاعدي ابتدأ بالأقوال وانتهى بالأفعال :

١- التذمر والشكوى

٢- التضرع إلى الآلهة واستمالة السلطة الدينية

٣- استمالة مجالس المدينة

٤- البحث عن منقذ

أن أول موقف اتخذه الشعب من جلجامش هو تشكيكه بمكانة جلجامش كوكيل للآلهة و في شرعية إعماله التي تتناقض مع طبيعة المهام الموكلة إليه سواء من الآلهة أو من مجلس الشعب [٢٠]، فقد بدأ الناس يتساءلون هل هذا هو راعي أوروك المسورة ؟ أهو راعينا الذي يتصف بالجمال والحكمة ؟ [٢١] أم أن هذه الأوصاف لا تنطبق عليه ، ثم بدأ الناس بالتذمر والشكوى والتكلم عن مظالم جلجامش بغية فضحها وتأليب الناس عليه مما يندرج ضمن نطاق العمل الدعائي أو الإعلامي ، وقد لمسنا كيف أصبح الناس يجهرون بتذمرهم ولا يحسبون لغضب جلجامش حساب ، بدليل

من الباحثين الروس ، ترجمة : سليم طه التكريتي ـ (بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٦) ، ص ٢٦٣ – ٣١٠ .

[٢٠] تشير الملحمة إلى وجود هذا المجلس في أثناء عزم جلجامش السفر إلى غابة الأرز ومع أن المجلس بدا استشاريا لعدم قدرته على تغيير قرارات جلجامش إلا انه ربما كان في السابق يمتلك مثل هذه الصلاحيات ناهيك عن كونه مصدر السلطة التي يتمتع بها الحاكم حول ذكر المجلس في الملحمة ينظر : رينيه لابات ، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين ، ترجمة : البير أبونا و وليد الجادر ، (بغداد ، ١٩٨٨) ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

[٢١] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٧٧ .

تحولهم إلى صيغة أخرى من صيغ المواجهة وهي التضرع للإلهة [٢٢] واستمالة السلطة الدينية طلبا للخلاص من ظلم جلجامش وجوره ، فهو تقليد دأب الناس عليه منذ قديم الزمان والى الآن ، لكن هل تجدي هذه الأمور نفعا ؟ أم لابد من عمل قوي يهز عرش جلجامش ويضرب سلطته في الصميم ، ويبدو أن الثورة وصلت إلى البرلمان (أي المجلس الذي ورد ذكره في بعض مقاطع الملحمة والذي تشير إليه نظرية الديمقراطية البدائية) مع أننا لا نملك إشارة واضحة لذلك ، لكن يمكننا الاستدلال على ذلك من أمرين الأول الوفد الذي التقى بانكيدو ونقل إليه معانات المدينة [٢٣]، والثاني حدوث المواجهة بين جلجامش وانكيدو التي لم تكن لتحصل لولا وجود سلطة ما سمحت بذلك ، وإلا بإمكان أي شخص قتل الحاكم وانتزاع حكمه متى يشاء ، فصعود انكيدو كمنافس لجلجامش أو متحدي له ، جاء بإيعاز من مجلس المدينة الذي نقل لانكيدو معانات الناس وحفزه على مواجهة جلجامش مقابل توليه الحكم بدلا عنه ، لكن لماذا أصبح النزال هو الفيصل في تحديد هوية الحاكم ؟ هل كان هذا تقليدا عاما في بلاد سومر ؟ أم هو أمر اختص بجلجامش وحده لكونه يدعي القوة والصلابة ، وللإجابة على ذلك نقول أن اعتماد اختبار المصارعة كوسيلة لاختيار الحاكم ربما كان أمرا شائعا آنذاك [٢٤]، لحاجة المدينة إلى قائد قوي وشجاع يستطيع أن يدفع عنها المخاطر التي تتهددها ، وهذا ما يتطلب أن يمتاز هذا القائد ببنية قوية وجسد ضخم حتى يخيف خصومه وبالذات نظرائه من حكام المدن الذين قد يطمعون بالسيطرة على مدينته ، فضلا عن أن الحاكم الذي يؤدي آنذاك دور تموز (دموزي) في طقس الزواج المقدس لابد أن يكون لائقا لهذا الدور [٢٥]، لأن طقس الزواج المقدس الذي ينشر الخصب والحيوية في البلاد بحاجة إلى رجل يتمتع بالخصوبة والحيوية والقوة [٢٦] ، في الوقت نفسه كانت تلك المواجهة نوعا من التحدي لكسر غرور جلجامش وإسقاط هيبته بين الناس ، فليس جلجامش وحده من يستطيع حماية المدينة أو يدعي انه الأقوى بين الناس بل هناك من يبزه قوة وصلابة [٢٧] ، ولذلك وجد رجال المدينة في انكيدو الشخص الذي يمكنه تحقيق هذه الغاية انطلاقا من قواه العضلية ومؤهلاته البدنية ، يبقى أن يقبل بالمهمة ويساهم في جهد المدينة للإطاحة بجلجامش ، لقد صورت السلطة الدينية انكيدو على انه هبة الآلهة

---

[٢٢] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٧٨ .
[٢٣] المصدر نفسه ، ص ٩١
[٢٤] رشيد ، فوزي ، السياسة والدين في العراق القديم ، (بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٣) ، ص ٩ .
[٢٥] حبيب ، باسم محمد ، الفكر الاقتصادي العراقي القديم في ضوء بعض النصوص الأدبية (٣٠٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م) ، اطروحة دكتوراه ، كلية التربية – جامعة واسط ، ٢٠١٦ ، ص ٤٦ .
[٢٦] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٧٨ .
[٢٧] المصدر نفسه ، ص ٩١ - ٩٢ .

إلى الناس وأعطت لظهوره صفة قدرية انسجاما مع نسقها الديني [٢٨]، أما انكيدو فلم يظهر بمظهر المغفل أو المغرر به لأنه كان مستعدا ومتحفزا للمواجهة ، انطلاقا من إمكانياته البدنية ومواهبه القتالية ناهيك عن تعاطفه مع قضية الناس ورغبته في وضع حد لشرور جلجامش وطيشه ، إذ كان انكيدو واعيا لطبيعة المهمة مدركا لتبعاتها التي قد تصل حد الموت :

هلمي أيتها البغي خذيني

إلى المعبد المدهش المقدس مقام انو وعشتار

حيث (يسكن) جلجامش ذو القوة الكاملة

وحيث يعتقد مثل جاموس انه أقوى الناس

أنا أريد أن أصارعه وان أتحداه [٢٩]

، وليس أدل على نزاهته وابتعاده عن الشعور الأناني من نجاحه في تغيير جلجامش وتحويله من شخص طاغ ومستبد إلى راع يهتم بشؤون الشعب ويسهر على راحته ، فتغير جلجامش إلى الأحسن هو الدليل الأكبر على حسن نية انكيدو من النزال مع جلجامش ، فلو كان هذا الهدف أنانيا أو نابعا من مصلحة خاصة لما شهدنا هذا التغيير في نفسية جلجامش وفي تصرفاته بحيث استوى حاكما عادلا ومتزنا بخلاف ما كان عليه في السابق ، كذلك لمسنا التغيير في انكيدو نفسه عندما لم تستهوه مغريات السلطة ومباهجها .

لقد عرضت الملحمة وقائع النزال بين البطلين عرضا بديعا ومشوقا عندما قالت :

سد (انكيدو) باب بقدميه

منع جلجامش من الدخول

مسك أحداهما بالآخر وهما متمرسان (بالصراع)

تصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين

حكما عمود الباب وارتج الجدار

وحينما أنثنى جلجامش ركبته وقدمه ثابتة في الأرض (ليرفع انكيدو)

---

[٢٨] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٧٨ – ٧٩.
[٢٩] المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

وأستدار ليمضي

هدأت سورة غضبه [٣٠]

وعلى الرغم من أن نتيجة المعركة كانت لصالح جلجامش بحسب ما أشارت إليه الملحمة ، إلا أن أمرا غريبا حصل بعد ذلك ، فبدلا من أن ينتقم جلجامش من عدوه وينكل به لتحديه إياه أمام الناس ، هدأ فجأة ، ما قد يشير إلى إعجابه بشجاعة وقوة أنكيدو ، وربما أدرك جلجامش خطأه فأراد أن يكفر عنه بهذه الصداقة التي تعني من بين ما تعنيه قبوله بطلبات أهل المدينة ونزوله عند رغباتهم ، فتحول منذ تلك اللحظة من حاكم ظالم مستبد إلى حاكم عادل يحرص على حقوق الناس وحريتهم ، ما يعني أن الإنتفاضة قد حققت أهدافها وبلغت ما كانت تأمله من هذه المواجهة الكبيرة .

[٣٠] طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ٩٣ .

الاغتيالات السياسية في بلاد الرافدين

اقترن نشوء وتطور النظام السياسي في العراق القديم بنشوء أشكال متنوعة من العنف من بينها ما يعرف بـ(الاغتيال السياسي) ، والذي يستهدف في الغالب طبقة الحكام من اجل استبدالهم بحكام آخرين ، ولم يقتصر وجود هذه الظاهرة على عصر بعينه كما لم يحدد بأساليب معينة .

ولتسليط الضوء على ظاهرة الاغتيال السياسي وأسبابها وأشكالها لابد لنا من تناول معظم المدة الزمنية التي واكبت حضارة وادي الرافدين ، أي من ٣٠٠٠ إلى ٥٣٩ ق.م .

ولأن حالات الاغتيال السياسي هي التي تعنينا ، فقد قصرنا حديثنا عليها متجنبين الخوض في أي تفصيلات أخرى لا علاقة لها بأصل الموضوع ، بما في ذلك تناول الأوضاع العامة للبلاد في عهود الحكام والملوك المعنيين بالدراسة .

وبالتالي ستتناول الدراسة ذكر حالات الاغتيال ضمن سياق العصور التي ينقسم إليها تأريخ بلاد الرافدين ، وهي عصر فجر السلالات والعصر الاكدي والعصر السومري الحديث والعهود البابلية والآشورية ، متمنين أن نكون قد وفقنا في إعطاء الموضوع حقه ومن الله التوفيق .

الاغتيال لغة واصطلاح

وردت لفظة اغتيال باللغة السومرية بصيغة ((SI-SI تقابلها صيغة (sagaltu) الاكدية ، اما لفظة اغتال فقد وردة بالصيغة السومرية (GAZ) التي تعطي أيضا معنى قتل تقابلها صيغة (sagasu) الاكدية [١] .

أما اصطلاحا فيعني عملية قتل منظمة ومتعمدة تستهدف شخصية مهمة ذات تأثير فكري أو سياسي أو عسكري أو قيادي ، ويكون مرتكز عملية الاغتيال عادة أسباب عقائدية أو سياسية أو اقتصادية أو انتقامية ، تستهدف شخصاً معيناً يعتبره منظمو عملية الاغتيال عائقاً لهم في طريق انتشار أوسع لأفكارهم أو أهدافهم ، وبعبارة أخرى هو شكل من أشكال العنف الذي ينطلق من دوافع أو يتجه إلى أهداف سياسية ،

[١] لابات ، رينيه ، قاموس العلامات المسمارية ، ترجمة : الأب البير ابونا وآخرون ، (بغداد ، ٢٠٠٤) ، ص ٣٨٨ .

فهو عمل جنائي من جهة وسياسي من جهة أخرى يراد به إحداث تغيير في النظام السياسي يخدم أهداف من اقترفوا هذا العمل ، وفي الغالب يتم غيلة اتقاء فشل الاغتيال وعدم تحقيقه للأهداف المرجوة .

الاغتيال السياسي في المنظومة الإلهية

يرد في أسطورة الخليقة البابلية المسماة (انوما إيلش) [٢]، ذكر صراع كبير بين مجموعتين من الآلهة : المجموعة الأولى وهي مجموعة الآلهة الأولى أو العتيقة ، والمجموعة الثانية هي مجموعة أبنائهم الآلهة الفتية ، أما سبب الصراع فمرتبط بإنزعاج آلهة المجموعة الأولى من سلوك آلهة المجموعة الثانية ، الأمر الذي دفع (أبسو) الذي هو إله المياه التحتية ، وكبير آلهة المجموعة الأولى ، إلى إعلان عزمه على أفناء وتدمير آلهة المجموعة الثانية ، على الرغم من اعتراض زوجته (تيامة) ، ولكن آلهة المجموعة الثانية استعدوا للأمر ، وكلفوا (أيا / انكي) إله المياه والحكمة بالتصدي لهذا المخطط الذي يستهدفهم ، فقام الأخير بتسليط النوم على (ابسو) وقتله ، تقول الأسطورة : " (أيا) الملم بكل شيء أدرك خطتهم ، اعد دائرة سحرية مضادة لها ألف بمهارة رقية مقدسة لا عاصم منها ، انشدها وجعلها تطفوا فوق الماء ، سكب عليه النوم فغط في السبات العميق .. وحين اخضع (أبسو) هكذا ذبحه .. " [٣] ، ومن خلال هذه القصة الأسطورية نستشف ما يلي :

١- أن الاغتيال السياسي ليس حكرا على عالم البشر ، بل هو موجود أيضا في عالم الآلهة ، انطلاقا من مبدأ التشبيه الذي يشكل ركنا مهما من أركان الديانة العراقية القديمة [٤] ، الذي يجعل الآلهة شبيهة بالبشر ، ولا تختلف عنهم إلا بامتلاكها لسمة (الخلود) .

٢- إن هذا الاغتيال الإلهي قد تسبب بإنهيار نظام كوني وظهور نظام كوني جديد على رأسه (آن / آنو) إله السماء و(انليل) إله الهواء ، فهو ذو هدف مشابه للاغتيال السياسي الذي يحصل في عالم البشر ، الذي يتسبب في الغالب بإنهاء حكم ومجيء حكم جديد .

---

[٢] أسطورة الخليقة البابلية هي أسطورة مكونة من سبعة ألواح مدونة بالخط المسماري واللغة الأكدية تتناول معركة بين الآلهة وما نتج عنه من قيام الآلهة بخلق العالم والإنسان حولها ينظر : هايدل ، الكسندر ، سفر التكوين البابلي ، ترجمة : سعيد الغانمي ، (بغداد ، ٢٠٠٧) .

[٣] هايدل ، سفر التكوين البابلي ، ص ٣٨ – ٣٩ .

[٤] حول الديانة العراقية القديمة ينظر : بوتيرو ، جان ، الديانة عند البابليين ، ترجمة : وليد الجادر ، (بغداد ، ٢٠٠٥) .

الاغتيال السياسي في عصر فجر السلالات السومرية

على الرغم من طول المدة التي حكم فيها حكام وملوك سومريون ارض بلاد الرافدين ، إلا أننا لا نملك أدلة تشير إلى شيوع ظاهرة الاغتيال السياسي في عهدهم لا سيما عصر فجر السلالات السومرية (حدود ٣٠٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م) ، ولا تعرف بالتحديد أسباب ذلك ، إن كانت لها علاقة بالصفات الشخصية للشعب السومري أو لها علاقة بالظروف السياسية السائدة ، و قد يكون للعاملين معا دور في ندرة حصول هذه الظاهرة ، في مدة سيادتهم على البلاد ، والتي امتدت لعدة قرون ، ويبدو من المعطيات المتوفرة عن فترات حكمهم ، أنهم اقل ميلا للعنف من شركائهم الساميين [٥] ، لكن هذا لا يعني أنهم لم يشهدوا أشكالا أخرى من العنف على غرار تلك التي ترافق في النظم السياسية ، مثل : الصراعات الداخلية ، والانتفاضات الشعبية ، والحروب ، لا بل لدينا حادثة يشك في كونها أول حادثة اغتيال سياسي شهدها تأريخ بلاد الرافدين ، ففي خضم الحرب بين لكش وأوما ، التي تعد من أطول الحروب في التاريخ القديم ، وبينما كان (اور – لوما) انسي أوما يستعد لتوجيه ضربة قاصمة لـ(لكش) في عهد (اناناتم) ، حصل تغيير في الوضع السياسي والعسكري على الجانبين ، فمن جانب لكش ، توفي الملك المسن (اناناتم) ، وحل محله ابنه الشاب (انتمينا) ، ومن جانب أوما ، قام (إل) كاهن معبد زابالام وابن أخ الإنسي (اور- لوما) ، بإزاحة عمه أو اغتياله ، ولا يعرف إن كان الأمر حصل على أثر صفقة سياسية مع انتمينا ، أو تحصيل حاصل على اثر التغييرات الميدانية التي شهدتها الحرب ، فـ(وثيقة انتمينا) [٦]، تشير إلى اغتصاب (إل) كاهن معبد زابالام للحكم ، وإذا ما صح هذا ، فإن الحاكم السابق ربما ذهب ضحية المواجهة مع المغتصب [٧] ، ولكن يحتمل أنه تعرض للاغتيال من قبله ، وان نجهل تفاصيل ذلك كليا .

الاغتيال السياسي في العهد الاكدي والعهد السومري الحديث

شهد العهد الاكدي عدة حالات من الاغتيال السياسي ، وقد كان الملك (رموش) (٢٣١٥ – ٢٣٠٧ ق.م) خليفة وابن مؤسس السلالة الاكدية سرجون (شارو كين)

---

[٥] اوتس ، جون ، بابل تاريخ مصور ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الجلبي ، (بغداد ، ١٩٩٠) ، ص ٤٦ .

[٦] وثيقة مهمة يمكن عدها من المحاولات الرائدة لكتابة التاريخ ، دونت بأمر حاكم لكش المسمى (أنتمينا) أو (أنمتينا) الذي حكم في المدة من (٢٤٣٠ – ٢٤٠٠ قبل الميلاد) ، وأهمية هذه الوثيقة تكمن في محاولتها وضع إطار تاريخي للنزاع بين أومّا ولكش من خلال التطرق إلى أحداث تسبق عهد مدونها ، للمزيد من المعلومات عن الوثيقة ينظر : كريمر ، صوموئيل ، من ألواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، (مؤسسة فرانكلين) ، ص ٨٩ – ١٠٥ .

[٧] حبيب ، باسم محمد ، أوما من عصر فجر السلالات السومرية إلى نهاية العصر البابلي القديم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، (جامعة واسط – كلية التربية ، ٢٠١١) ، ص ٥٩ .

(٢٣٧١ – ١٣١٦ ق.م) ، أول من تعرض للاغتيال السياسي من الملوك الاكديين ، وان جاءت معلوماتنا عن ذلك من نصوص الفأل ، فوفقا لأحد هذه النصوص : " ان خدم القصر قتلوه برقمهم " [٨] ، ولا يعرف بالتحديد ما تعنيه هذه العبارة : فهل أن الرقم كانت مجرد أداة للقتل ؟ أم انه تعرض لحملة إعلامية من موظفيه وخدمه ، ربما بسبب سياسته وطريقة تصريفه للأمور ، ويرجح أن يكون أخوه (مانشتوسو) (٢٣٠٦ – ٢٢٩٢ ق.م)[٩] ضالعا في هذا الأمر ، بدليل توليه العرش بعده [١٠] .

لكن هذا الملك الذي حكم مدة أطول من مدة حكم أخيه ، ذهب هو الآخر ضحية اغتيال سياسي نجهل تفاصيله إلى الآن [١١]، فالرقم التي تناولته ، وهي رقم الفأل ، تمتاز بقصرها ، وبكونها ذات أغراض بعيدة عن التوثيق التاريخي ، لكنها من جانب آخر قد تمكننا من إدراك معلومات قد لا يتسنى إدراكها من الوثائق الرسمية ، فـ اغتيال مانشتوسو يحتمل احد أمرين : أما انه اغتيل من قبل مقربي الملك رموش ، ثأرا لمقتله ، أو من قبل ابنه (نارام – سن) (٢٢٩٢ – ٢٢٥٦ ق.م) الذي خلفه على العرش ، ربما بسبب خلافات أسرية أو ما شاكل ، وسواء كان الأمر هذا أو ذاك ، فإن تكرر اغتيال الملوك الاكديين ، ربما يؤكد شيوع هذه الظاهرة كجزء من الواقع السياسي القائم ، بدليل تواصل هذه الظاهرة إلى عهود تالية ، كما حصل عندما اغتيل الملك التالي(شار كالي شري) (٢٢٥٥ – ٢٢٣٠ ق.م) أبن نارام سن - بحسب ما يرجح - وان يغلب الغموض على ذلك [١٢] ، فبينما يرد في أحد نصوص الفأل أن خدمه قتلوه برقمهم الطينية [١٣] ، هناك ما يشير إلى أن للمؤسسة العسكرية دور في عملية الاغتيال ، بدليل الارتباك الذي شهدته المؤسسة السياسية بعد مصرعه ، وتنافس عدد من الأشخاص على خلافته ، إلى درجة دفعت كاتب وثيقة (إثبات الملوك السومريين) [١٤] إلى تناول ذلك بكلمات موجزة ذات دلالة :

" من كان ملكا ؟ من لم يكنه ؟

هل كان ايكيكي ملكا ؟

هل كان نانوم ملكا ؟

---

[٨] رو ، رو ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ٢١٢ .
[٩] يعني أسمه (من هو معه) ما يعني أنه أخوه التوأم ينظر : أوتس ، بابل تاريخ مصور ، ص ٥٢ .
[١٠] باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٣٩٩ .
[١١] السعدي ، حسن محمد محي الدين ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، (الإسكندرية ، ١٩٩٨) ، ص ٧٨ .
[١٢] أوتس ، بابل تاريخ مصور ، ص ٥٥ .
[١٣] الأمير ، سعدون عبد الهادي ، الأزمات السياسية الداخلية في العراق القديم ، رسالة ماجستير ، (كلية التربية ، جامعة واسط ، ٢٠٠٥) ، ص ٤٧ .
[١٤] هي وثيقة دونها الكتبة تحت عنوان (الملوكية) تناولت ذكر السلالات الحاكمة من عصر ما قبل الطوفان إلى قبيل حكم سلالة أور الثالثة في إحدى النسخ وإلى عهد سلالة أيسن الأولى في نسخة أخرى للمزيد ينظر : باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٣١٨ .

هل كان ايمي ملكا؟

أم كان ايلولو ملكا ؟

كان رابوعهم ملكا حكم ثلاث سنين " [١٥]

لقد أدى هذا الانقسام السياسي إلى تعرض البلاد لغزو أجنبي قامت به القبائل الجبلية المسماة بـ(الكوتيين) [١٦]، والتي تسببت ليس بإرباك سياسي وحسب ، بل وبتأخر حضاري واقتصادي دام ما يقرب من مائة عام [١٧].

أما في العهد السومري الحديث الذي دام ما بين (٢٢٠٠ و٢٠٠٦ ق.م تقريبا) [١٨] ، فلدينا أدلة تشير إلى تعرض ملك سلالة أوروك الخامسة المحرر السومري الشهير أوتو حيكال (٢١٢٠ – ٢١١٣ ق.م) لعملية اغتيال قام بها أور – نمو عامله على مدينة أور ، ويبدوا ان سبب ذلك متعلق بتحكيم اوتو – حيكال في نزاع حدودي نشب بين مدينتي اور ولكش ، وعلى الأرجح مال الأخير إلى جانب لكش ، الأمر الذي اغضب اور – نمو ، فقام بإغتيال سيده والحلول محله في حكم البلاد ، لكن أحد نصوص الفأل أشار إلى غرقه في نهر كان يشرف على بناء سد عليه [١٩] ، وقد يكون ذلك بتدبير من أور – نمو ، الذي تفرغ بعد ذلك لتصفية حسابه مع لكش وحاكمها (نامخاني) ، الذي قتل هو الآخر في خضم الصراع على الزعامة بين حكام سومر ، الذين أعقبوا فترة الغزو الكوتي [٢٠] .

الاغتيال السياسي في العصرين البابلي القديم والوسيط

ومن الحالات التي تدخل في نطاق ظاهرة الاغتيال السياسي ، ما حصل لملك سلالة ايسن الأولى (٢٠١٧- ١٧٩١ ق.م) (ايرا – ايميتي) (١٨٦٨ – ١٨٦١ ق.م) [٢١]، الذي يحتمل انه تعرض للاغتيال من قبل البستاني (انليل – باني) ، الذي اختير ليكون ملكا بديلا عن الملك الأصلي ، وهي عادة سياسية متبعة في العراق القديم ، يتم فيها إخفاء الملك الأصلي على أساس وجود خطر يهدده ، وتعيين ملك

---

[١٥] رو ، العراق القديم ، ص ٢١٧ .

[١٦] الكوتيين قبائل جبلية كانت تقطن الجبال الشرقية المحاذية لبلاد الرافدين انتهزت فرصة الاضطراب السياسي الذي شهدته الدولة الأكدية ليقوموا بغزوها والسيطرة على أجزاء من البلاد لمدة تقارب القرن للمزيد ينظر : باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات مة ، ج١ القدي، ص ٤٠٧ – ٤٠٩ .

[١٧] السعدي ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٨٥ .

[١٨] العصر السومري الحديث أو عصر الانبعاث أو الأحياء السومري : هو العصر الذي تلى سقوط الدولة الأكدية وحكم الكوتيين ، إذ حكمت فيه عدة سلالات من بينها سلالتي الوركاء الرابعة والخامسة وسلالة لكش الثانية وسلالة أور الثالثة ينظر : السعدي ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٨٩ – ٩٠ .

[١٩] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٤١٥ .

[٢٠] رشيد ، فوزي، الشرائع العراقية القديمة ، (بغداد ، ١٩٧٣) ، ص ٢٦ .

[٢١] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٤٥١ .

بديل له ، يبقى في الحكم لعدة أيام ، لحين انتهاء الخطر ، ومن ثم يتم التضحية بالملك البديل ، وإجراء تطهير للقصر الملكي ، للتخلص من بقايا الشر ، الذي انتهى مع انتهاء ذلك الملك ، لكن في حالة ايرا – ايميتي ، لم يتم التخلص من الملك البديل ، بل من الملك الأصلي ، الذي مات بعد تناوله الحساء ، ويرجح انه اغتيل بالسم ، لعله على يد الملك البديل نفسه ، ثم تولى العرش بدلا عنه ، واستمر في الحكم عشرين سنة [٢٢] .

وفي عهد سلالة بابل الثالثة (الكشية) التي حكمت البلاد ما بين ١٥٩٥ و ١١٥٧ ق.م [٢٣] ، ومثلت أطول حالة استقرار سياسي شهده البلد في عصره القديم ، فقد انتابتها بعض الحوادث القليلة ، ومنها ما يرجح إنها حالة اغتيال تعرض لها الملك (كرا خرداش) ، وهو حفيد الملك الآشوري آشور اوبالط (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م) من ناحية الأم ، إذ يرد في أحد النصوص ما نصه : " ثار الجيش الكشي ضد كراخرداش ملك كاردونياش (بلاد بابل) أبن موبلطات – شرو أبنة آشور – أوبالط وقتله ونصبوا (نازي – بوكاش) الكشي أبن لا أحد عاهلا عليهم " [٢٤]، ويبدوا أن القائمين على عملية الاغتيال ، ويرأسهم شخص اسمه (نازي بوكاش) ، قد انزعجوا من تولي رجل تسري في عروقه الدماء الآشورية للعرش البابلي ، ربما لإدراكهم أنه سيكون خاضعا لنفوذ جده ، فأقدموا على قتله ، إلا أن جده الآشوري تدخل وقضى على الثائرين ، ونصب حفيدا آخر له هو كوريكالزو الثاني على عرش البلاد [٢٥] .

الاغتيال السياسي عند الآشوريين

ولم يكن الملوك الآشوريون بمنأى من الاغتيال الذي طال العديد منهم ، ومن هؤلاء توكلتي ننورتا الأول (١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م) ، الذي عرف عنه انه اول ملك آشوري يفرض سلطته المباشرة على بلاد بابل ، بعد دحره الملك الكشي كاشتلياش الرابع ، ولكن هذا الملك الآشوري قد تعرض لحادثة اغتيال أودت بحياته ، فقد ورد في النص المسماري : أن " توكلتي ننورتا الذي جلب السوء لبابل ثار عليه آشور نادن إيلي والنبلاء الآشوريين وخلعوه عن العرش وفي كار توكلتي ننورتا حاصروه في قصره وقتلوه بسيفه " [٢٦] ، وبحسب ما ورد في النص ، يبدوا أن دافع الثوار هو الثأر لما حصل لبابل ، المدينة التي يعتز بها كثير من الآشوريين .

---

[٢٢] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٤٥١ .
[٢٣] حول الكشيين وحكمهم ينظر : باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٤٩٣- ٥٠١ .
[٢٤] الأمير ، الأزمات السياسية الداخلية في العراق القديم ، ص ١١٨ .
[٢٥] سامي سعيد الاحمد ، فترة العصر الكاشي ، مجلة سومر ، ج١-٢ ، مجلد ٣٩ ، ١٩٨٣ ، ص ١٤٠ .
[٢٦] رو ، العراق القديم ، ص ٣٥٥ .

كذلك اغتيل الملك الآشوري القوي تجلا ثيلزر الأول (١١١٥ – ١٠٧٧ ق.م) ، الذي يعد من الفاتحين المشهورين في تاريخ بلاد آشور ، إذ مد حدود الإمبراطورية شرقا وغربا ، وبمصرعه تعرضت الدولة الآشورية إلى إنتكاسة سياسية وعسكرية ، لم تتخلص منها إلا في عهدها الإمبراطوري الحديث [٢٧]، أما ابرز حوادث الاغتيال ، فكان اغتيال الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٤ – ٦٨١ ق.م) ، إذ ورد في أحد النصوص المسمارية أنه : " في اليوم العشرين من شهر طبتو سنحاريب ملك بلاد آشور قتل من قبل ابنه بتمرده بعد ان حكم بلاد آشور أربعة وعشرين سنة "[٢٨] ، كما ورد خبر إغتياله في التوراة [٢٩] ، إذ أشير إلى اشتراك اثنين من أولاده في هذه العملية ، احدهما (اراد – موليس) (ادرا ملك) كما يرد في التوراة [٣٠] ، ولا تعرف الأسباب الكامنة وراء هذا الاغتيال ، ولكن يبدو ان لها علاقة بوراثة العرش ، فقد ورد في نص يعود لأبنه وخليفته اسرحدون : أن اتهامات أخوته ووشايتهم به ، أوغرت صدر أبيه ، ثم يشير إلى أنهم صاروا بعد ذلك " يناطح احدهم الآخر كالتيوس لأخذ الملوكية " [٣١]، والمثير في الأمر أن هذا الملك (أي سنحاريب) ، قد استباح هو الآخر بابل ، وذلك عام ٦٨٩ ق.م ، وبالتالي قد يكون من أسباب اغتياله ، الثأر لها ، أي على غرار ما حصل للملك توكلتي ننورتا الأول .

الإغتيال السياسي في العصر البابلي الحديث

وفي العصر البابلي الحديث (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م) [٣٢] ، وبالتحديد بعد وفاة الملك الشهير نبوخذ نصر الثاني ، حصلت حوادث اغتيال ذهب ضحيتها بعض خلفائه ، أولهم ابنه (أميل مردوخ) أو (أويل مردوخ) المذكور بالتوراة ، والذي عرف بتعاطفه مع الملك اليهودي الأسير (يهوياقين) [٣٣]، كذلك واجه الخليفة الثالث لنبوخذ نصر المسمى (لباشي مردوخ) نفس المصير ، ونصب الثوار ملكا جديدا هو ملك بابل الأخير (نبونائيد) (٥٥٥ – ٥٣٩ ق.م) الذي انتهى في عهده كيان بابل السياسي [٣٤]، ولا يعرف بالتحديد أسباب هذه الثورات ، عدا احتمال كونها مرتبطة بالصراع القائم آنذاك بين المؤسستين الدينية والسياسية ، وقد يكون لها علاقة بما

---

[٢٧] رو ، العراق القديم ، ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .
[٢٨] سلمان حسين احمد ، كتابة التاريخ في بلاد الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، (بغداد ، ٢٠٠٩) ، ص ٣٠٦ – ٣٠٧ .
[٢٩] سفر الملوك الثاني ١٩ : ٣٦ – ٣٧ .
[٣٠] ساغز ، هاري ، عظمة آشور ، ترجمة : خالد اسعد عيسى واحمد غسان سبانو ، (دمشق ، ٢٠٠٨) ، ص ١٤٠ .
[٣١] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٤٧٣ – ٤٧٤ .
[٣٢] يشمل العصر البابلي الحديث مدة حكم سلالة بابل الحادية عشر (الكلدانية) للمزيد عن هذه السلالة ينظر : المصدر نفسه ، ص ٦٠١ – ٦١٣ .
[٣٣] سفر الملوك الأول والثاني ٢٥ : ٢٧ ، سفر أرميا ٤٢ : ٣١ .
[٣٤] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٦٠٦ – ٦٠٧ .

حصل بعد ذلك من تقاطع بين الملك الأخير نابونائيد وكهنة الإله مردوخ ، المهم في الأمر ، أن الأوضاع السياسية لهذه السلالة ، قد دفعت البلاد إلى الإنهيار والسقوط بيد الاحتلال الأجنبي عام ٥٣٩ ق.م [٣٥] .

الخاتمة

نستخلص من ذلك ما يلي :

١- ان الاغتيال السياسي كان معروفا في العراق القديم ومعتادا في الواقع السياسي وأن الهدف منه إستبدال ملك بملك آخر في الأعم الأغلب .

٢- كان الاغتيال السياسي نادرا عند السومريين ، ولعل ذلك نابع من صفاتهم الشخصية أو من ظروف واقعهم السياسي الذي لم يكن بذات التعقيد الذي أصبح عليه النظام السياسي في العهود التالية .

٣- استخدمت أساليب متنوعة في الاغتيال السياسي ، فهناك الاغتيال باستخدام أداة قتالية أو بالسم أو باستخدام الأختام ورقم الطين أو ربما إغراق الخصم كما يحتمل حصوله مع الملك أوتو – حيكال .

٤- ان حوادث الاغتيال السياسي لم تشمل عصرا معينا بل شملت معظم عهود وعصور حضارة وادي الرافدين .

٥- لم يقتصر القيام بعمليات الاغتيال على أفراد الطبقة السياسية بل شاركت أيضا أفراد من طبقات أخرى لا سيما من الطبقتين الدينية والعسكرية ، فيما شهدنا حالة اغتيال واحد قام بها شخص من طبقة الفقراء وذلك على هامش طقس البديل الملكي .

[٣٥] أوتس ، بابل تاريخ مصور ، ص ٢٠٥ .

هل وصل جلجامش إلى دلمون ؟ قصة اول رحلة بحرية مدونة في التأريخ

تثبت لنا ملحمة جلجامش، يومًا بعد يوم، أنها أكبر من مجرد نص أسطوري، فقد قدمت لنا الكثير من المعلومات الثمينة عن الواقع التاريخي المعاصر لها.

وفي بحثنا هذا سنحاول استثمار نص الملحمة في استقصاء رحلة يمكن أن تعد أقدم رحلة بحرية مدونة في التاريخ. فبحسب علمنا ليس هناك نص يتكلم عن رحلة بحرية يسبق من حيث الزمن النص المذكور في ملحمة جلجامش [١]، والذي يستوعب مجمل اللوح العاشر من ألواح هذه الملحمة [٢]، فمعظم النصوص التي تتكلم عن رحلات كهذه متأخرة كثيرًا عن الزمن الذي دون فيه هذا النص بما لا يقل عن عشرة قرون. ناهيك عن طوله الذي لا يدانيه نص آخر حتى مراحل زمنية متأخرة حيث تنعدم النصوص المطولة إلى زمن هوميروس صاحب الأوديسة أو حنون الفينيقي صاحب الرحلة التي اجتازت أعمدة هرقل ودارت حول ساحل المحيط الأطلسي (بحر الظلمات).

سنحاول في هذه الدراسة المتواضعة إثبات حقيقة هذه الرحلة وقيمة المعلومات التي تقدمها عن الظروف والأحوال المعاصرة لزمنها، هذا بالإضافة إلى استجلاء هوية المكان الذي قصدته في ضوء ما لدينا من معطيات أثرية وتاريخية يمكن مقارنتها بنص الملحمة.

١

إذا كان الفكر العراقي القديم نتاج حضارة عميقة الغور أصيلة الفحوى يمتد عمرها إلى عدة آلاف من السنين فإن ملحمة جلجامش هي نتاج صادق وصورة رائعة له لأنها تماهت بشكل كبير مع عناصر ذلك الفكر الذي بني في معظمه على معطيات واقعية خلفتها الحياة في هذا الوادي وليس على مجرد افتراضات عاطفية وجدانية يخلفها الغموض والسكون كما يحصل عادة في بيئة يغشاها الهدوء والرتابة.

---

[١] جلجامش: هو خامس ملوك سلالة أوروك الأولى، ثاني سلالة حاكمة في البلاد بعد الطوفان بحسب إثبات الملوك السومرية، إذ ورد أنه حكم (١٢٦) سنة. كل ما لدينا عنه ملحمة مطولة تتكلم عن بطولاته وبضع قصص أخرى مكملة لها وإشارات متفرقة تقدمها لنا النصوص المسمارية وعلم الآثار، حيث ينسب له بناء سور أوروك الذي تم العثور على بقاياه، وهو يعود إلى عصر فجر السلالات ما بين ٣٠٠٠ و٢٣٥٠ قبل الميلاد.

[٢] تتألف ملحمة جلجامش من اثنتي عشر لوحًا، كل منها مقسم إلى أربع أعمدة تقريبًا، وكل لوح يضم ٣٠٠ سطرًا باستثناء اللوح الأخير الذي يضم نصف هذا المقدار تقريبًا. للمزيد من المعلومات حول ملحمة جلجامش انظر على سبيل المثال لا الحصر: باقر ، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) . وأيضًا: دياكونوف، جماليات ملحمة جلجامش، ترجمة عزيز جاسم، (موسكو) ، ص ١١-٩٤.

ولكون البيئة، التي عاش فيها الإنسان العراقي القديم، صعبة وقاسية فقد تولد لديه شعور بالترقب وعدم الأمان والتحسب لكل شيء، الأمر الذي مكنه من إضفاء رؤية واقعية على تفكيره ملخصها أن البقاء مؤقت والفناء دائم والنظام عارض والفوضى عميقة ومستحكمة في الوجود [٣]، الأمر الذي دفعه إلى استخلاص نظريته في الحياة وهي أنه لا شيء يغني عن العمل من أجل دفع الضرر ونشدان الأفضل، ولا سبيل إلى اتقاء المخاطر بدون السعي للوصول إلى الأمان، ليتولد لديه نزوع إلى البحث والتأمل فيما يحيطه من مظاهر طبيعية يمكن أن يجد الإنسان فيها ضالته فيعثر على أجوبته الكبرى حول الحياة ومصيرها، والكون ونظامه، والوجود وحقيقته.

لذا فإن أهم السمات الأساسية التي ميزت ملحمة جلجامش عن مثيلاتها من الملاحم الأخرى هي أنها أعطت لأسئلتها إجابات فكرية لا ميثولوجية على الرغم من طابعها الأسطوري العام. لذا ليس بمستغرب أن نجد جلجامش يحاول جاهدًا تلافي الموت من خلال البحث عن وسيلة مادية محيدة له مدركًا أن الحياة هي ذاتها مؤسسة للموت ومنتجة للفناء حتى تستقيم ويدوم حالها. لكنه بعد أن فشل حوَّل فشله إلى عمل ايجابي يتمثل بالسعي إلى نشدان الخلود المعنوي من خلال الذكرى الطيبة والعمل الجليل المثمر [٤].

٢

لقد سعى مدونوا الملحمة إلى تلخيص الفكرة الأساسية لذهنية حضارة بلاد الرافدين حتى تكون بمتناول الناس ليتمكنوا من متابعة حياتهم بكل ايجابية، وهذا ما يتيح لنا أن نعتقد أن أمر تدوين الملحمة لم يصدر عن غرض خاص، وإنما أريد أن تكون أغراضه مزدوجة أيضًا بسبب ما سببته الملحمة من ذيوع صيت جلجامش. وبالتالي علينا أن لا نتجاهل الطبيعة التاريخية للكثير من أحداث الملحمة على الرغم من طابعها الأسطوري العام واحتوائها على عنصر المبالغة المتوافق مع ذهنية الناس في تلك الآونة، خصوصًا مع إمكانية التحقق من بعض المعلومات الواردة في الملحمة من خلال الاستعانة بشواهد التاريخ والآثار.

٣

---

[٣] فرانكفورت ، هنري وآخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، بغداد، مؤسسة فرانكلين، ١٩٦٠، ص ١٤٥ وما بعدها.

[٤] قارن ترافيموف بين الخلود بنظر الملحمة والخلود عند الفراعنة والأشوريين، فأولئك يرون الخلود بالأعمال المادية الضخمة فيما ترى الملحمة أن أسمى أنواع الخلود هو الذي ينبع من عمل الخير لأنه يبقى عامرًا في قلوب الناس. انظر: ترافيموف، جماليات ملحمة جلجامش، ترجمة عزيز حداد، موسكو، ١٩٥٨، ص ١٦٣ وما بعدها.

ولنبدأ أولاً من حقيقة وجود رحلات مماثلة لرحلة جلجامش المدونة تم التأكد منها استنادًا لما تم العثور عليه من آثار وشواهد مادية مثلتها رسوم السفن الشراعية على الأختام والفخار [٥]. فهذه السفن لابد أن تكون مصنوعة لخوض رحلات من هذا النوع وليس لرحلات نهرية وحسب، كون الأنهار، التي تمتاز بصغرها وهدوئها، لا تحتاج إلى سفن ذات أشرعة بل إلى أبلام ومشاحيف تعتمد المجاديف أو المرادي في الدفع والحركة، حيث لم يتطور ارتياد الأنهار عن هذا الأمر حتى وقتنا الحاضر، إذ بإمكاننا ملاحظة أمثالها وهي تخوض في أهوار العراق وأنهاره بكل هدوء وانسيابية. لذا ليس بمستبعد قيام جلجامش برحلة من هذا النوع ما دام هناك فعلاً رحلات شقت طريقها عبر مياه الخليج حتى بلغت مدنًا وأقاليم بعيدة امتازت بعلاقاتها المتينة مع حضارة وادي الرافدين كدلمون ومكان وميلوخا على الرغم من الجدل المثار حول هوية هذه الأمكنة، والتي لم يتم حتى الآن الوصول إلى رأي قاطع بشأنها.

إن حصول تلك الرحلات يجعلنا نتساءل: هل كانت تلك الرحلات منتظمة؟ أم أنها كانت عبارة عن مغامرات فردية كحالة رحلة جلجامش في الملحمة؟ الإجابة تنبع من تقديرنا أن كل الأعمال البشرية تبدأ بالمغامرة والعمل الفردي ثم تتحول بعد ذلك إلى أعمال منتظمة وجماعية تستسهلها الناس. والرحلات البحرية ليست استثناء من ذلك. ولعل رحلة صاحبنا هي من الرحلات الفردية الاستكشافية التي يراد بها تجربة البحر وكشف غموضه، فرحلة جلجامش ليست مجرد رحلة أسطورية ذات هدف ميثولوجي، وليست ذات هدف فكري محض، فهي على الأرجح تحمل هدفًا تجاريًا يستهدف البحث عن طرق يمكن من خلالها تسهيل عملية التجارة التي أخذت بالظهور والتوسع في تلك الفترة. فمما لا شك فيه أهمية المعلومات التي تقدمها الرحلات البحرية التي يقوم بها المغامرون والمستكشفون لكون الرحلات التجارية كانت آنذاك محدودة ومحفوفة بالمخاطر. لذا لا غرابة في قلة من يرتادها، على الرغم مما تقدمه من مغريات كبيرة. وبالتأكيد فإن جزءًا كبيرًا من الغموض الذي يحيط بتلك الرحلات ناجم من محاولة تجار البحار تغليف تلك الرحلات بهالة من التهويل والمبالغة بغية صرف الناس عنها. فصاحبة الحانة التي تمثل أنموذجًا لطبقة التجار حاولت صرف جلجامش عن القيام برحلة بحرية على الرغم من كلمات جلجامش المؤثرة:

آه لقد غدى صاحبي الذي أحببت ترابا

وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين

---

[٥] يبدو أن صناعة السفن قد عرفت في هذه الفترة بدليل ما ذكرته أسطورة الطوفان عن تشييد اوتو نبشتم للفلك، حيث تؤكد أسطورة الطوفان على هذه الحقيقة. للمزيد من المعلومات حول أسطورة الطوفان انظر: عبد الواحد ، فاضل ، سومر أسطورة وملحمة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٠، ص ١٥٠ – ١٥٧.

فيا صاحبة الحانة وأنا أنظر إلى وجهك

أيكون بوسعي أن لا أرى الموت

الذي أخشاه وأرهبه [٦].

أما رد صاحبة الحانة فقد جاء بليغًا ودبلوماسيًا، فقد قدمت له وللبشرية من خلفه نصيحة مازالت ترددها العقول والألسن:

إلى أين تسعى يا جلجامش؟

إن الحياة التي تبغي لن تجد

فليكن كرشك مليئًا دائمًا

وكن فرحًا مبتهجًا نهار مساء

وأقم الأفراح وارقص والعب

واجعل ثيابك نظيفة زاهية

واغسل رأسك واستحم في الماء

دلل صغيرك وافرح زوجتك

فهذا هو نصيب البشرية [٧].

لكن جلجامش الذي أرهبه موت صديقه تجاهل تلك النصيحة رغم ما فيها من حكمة عاقدًا العزم على المضي قدمًا في رحلته المحفوفة بالمخاطر، لذلك كان رده على تلك النصيحة أنه طلب من صاحبة الحانة أن تدله على مكان وجود اوتو نبشتم، البشري الوحيد الذي نال الخلود بحسب الميثولوجيا الرافدية [٨]، مؤكدًا أنه لن يتوانى عن عبور البحار من أجل تحقيق ذلك. أما إذا تعذر عليه الوصول إلى مبتغاه فإن مأساته ستكون كبيرة ولن يجد فيما قالته صاحبة الحانة أي عزاء له، بل سيفضل السكن في الصحارى على تلك الحياة الرتيبة غير المجدية [٩].

---

[٦] باقر، ملحمة كلكامش، ص ٧ – ١٠.
[٧] المصدر نفسه ، ص ١٣٥ و١٣٨.
[٨] اوتو نبشتم هو بطل الطوفان بحسب المأثورات البابلية، وهو المقابل لزيو سدرا في المأثورات السومرية.
[٩] طه باقر، ملحمة جلجامش، ص ١٣٨.

بعد ذلك تغيرت نبرة صاحبة الحانة لتستبدل نصحها بعدم جدوى الرحلة بالتهويل والتخويف من مخاطرها الكبيرة. ولعلها اعتقدت أن جلجامش، كونه ملكًا عاش في ظل الرفاه ورغد العيش، سوف يعيد النظر في عزمه بعد أن يستوعب تحذيراتها:

يا جلجامش لم يعبر البحر قبلك أحد

أجل إن شمش القدير يعبره حقًا

ولكن مَن غير شمش يستطيع عبوره

إن عبوره شاق وعسير

وما عساك ستصنع لما تبلغ مياه الموت العميقة [١٠]

هنا نجد أن صاحبة الحانة قد بالغت في وصف المخاطر التي تنتظر جلجامش عند ارتياده البحر، وهذا ما نعزوه، إضافة إلى العامل الأسطوري، إلى رغبة التجار في صرف أنظار الناس عن تجارتهم حتى لا ينافسوهم عليها. ومن الغريب أن صاحبة الحانة قد قدمت هذه التحذيرات إلى جلجامش الذي يعرف بالتأكيد بعض أسرار تلك الرحلات كونه كان ملكًا من مهامه التعرف على نشاطات شعبه. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأمر آخر وهو أن جلجامش كان عازمًا على ارتياد طريق آخر غير الطريق الذي تسلكه الرحلات التجارية، وهو في العادة الطريق القريب من الساحل، لذا سمع من صاحبة الحانة تلك التحذيرات التي عرضت فيها مخاطر مياه الموت العميقة كناية عن المخاطر التي تكتنفها الأعماق.

لكن، ما الذي دفع جلجامش إلى سلوك هذا الطريق غير المسلوك سابقًا؟ هل هي محاولة لاكتشاف طريق آخر غير الطريق المعتاد، أم أنه كان يبغي المغامرة كحاله في المرات السابقة؟ تشير إحدى الإشارات في الملحمة إلى أن جلجامش قد دُفع إلى سلك هذا الطريق غير المأمون لأنه الطريق المعتاد لـ أور شنابي ملاح اوتو نبشتم، لذلك لم يجد بدًا من سلكه.

وأمام إصراره واندفاعه لم تجد صاحبة الحانة بدًا من أخباره بالسبيل الذي سيوصله إلى اوتو نبشتم ناصحة إياه بمصاحبة أور شنابي الذي كان موجودًا بالصدفة آنذاك وإلا فعليه أن يعود إلى وطنه [١١].

---

[١٠] باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ١٣٩.
[١١] المصدر نفسه ، ص ١٣٩.

اتجه جلجامش، بعد سماعه لهذه الكلمات، إلى الغابة حيث يوجد أور شنابي، لكنه قبل أن يلتقيه حطم بدون وعي منه الحجر المسحور الذي يسهل على أور شنابي عبور بحر الموت، وقد ساعده هذا على ما يبدو في إقناع أور شنابي بعد أن أصبح بحاجة إلى جلجامش لكي يعود إلى مقر سكن اوتو نبشتم [١٢]، فقد كان عليهما اعتماد طريقة أخرى أكثر خطورة تعتمد على المرادي، حيث يمكن للمردي الواحد دفع السفينة عدة خطوات قبل ذوبانه في مياه بحر الموت. أور شنابي بحاجة إلى عضلات جلجامش لجمع عدد كاف من الأخشاب التي يمكن استخدامها كمرادي في دفع السفينة.

إن وجود أور شنابي المتكرر في أرض سومر هو دليل على وجود اتصالات تجارية بين سومر وذلك المكان الذي يقطنه أوتو نبشتم، وإلا ما الداعي إلى تلك الرحلات الخطيرة المخيفة.

٤

لكن أين يقع ذلك المكان الذي يقطنه أوتو نبشتم؟ هل هو في داخل أرض سومر، أم هو قريب منها في إحدى جزر الخليج العربي، أم في مكان بعيد نسبيًا في تلك الأقاليم التي يرد ذكرها في نصوص بلاد وادي الرافدين؟ إن الإجابة على ذلك ترتبط بنوع الشواهد التي نمتلكها عن ذلك المركز التجاري. ومن خلال دراسة متن الملحمة نستطيع أن نفترض أن يكون هذا المكان هو إحدى جزر الخليج العربي. ربما جزر البحرين مثلاً، التي اقترنت ببلاد دلمون التي يرد ذكرها كثيرًا في النصوص المسمارية. ومن الشواهد التي نسوقها لذلك وجود عبادة الإله انكي (أيا) في البحرين، وهو الإله الذي أفشى سر الطوفان لأوتو نبشتم وساعده على النجاة منه. وهذا يؤكد الاتصالات التجارية بين المركزين ووجود رحلات بحرية بينهما حيث تؤكد الدلائل الأثرية وجود معبدين لهذا الإله في البحرين أحدهما في (دراز) والآخر في (ساد) عُثر فيهما على كميات كبيرة من عظام السمك التي تمثل في العادة أهم نذور هذا الإله الذي يرتبط بالمياه [١٣]. كذلك تعد دلمون في نظر السومريين أرض الحياة التي يعيش فيها الناس أعمارًا طويلة بعيدًا عن الألم والمرض. وفيما إذا صدقت تحليلات المؤرخين حول كون دلمون هي جزيرة البحرين فمن الممكن ربط وجود أوتو نبشتم في هذا المكان على أنه نتيجة للسمة التي تتميز بها هذه الجزيرة كأرض للحياة. أما المعطى الآخر فتوضحه لنا السطور التالية التي تمثل بتقديرنا أقدم وصف مدون لرحلة بحرية عرفها التاريخ، حيث تقول السطور:

---

[١٢] المصدر نفسه ، ص ١٢٩ – ١٤١.

[١٣] طه ، منير يوسف ، جذور الحضارة: حضارات الجزيرة العربية وعلاقتها بالأقطار المجاورة، مجلة آفاق عربية، العدد ٣، ١٩٩٢، ص ٣٩.

انزلا السفينة في الأمواج وهما على ظهرها

وفي اليوم الثالث قطعا في سفرهما ما يعادل

شهرًا ونصف من السفر العادي

وبلغ أور شنابي مياه الموت العميقة

ونادى جلجامش قائلاً:

هيا يا جلجامش أسرع وخذ مرديًا وادفع به

وحذار أن تمس يدك مياه الموت

أسرع وخذ مرديًا ثانيًا وثالثًا ورابعًا

وبمائة وعشرين دفعة استعمل جلجامش كل المرادي

ثم نزع ثيابه ونشرها كأنها شراع [١٤].

تؤكد هذه السطور أن المسافة المقطوعة كبيرة حتى بالنسبة للقدرات المستنفرة ثلاث أيام، والتي تعادل ٤٥ يومًا من السفر العادي. لعل المقصود من ذلك السفر عبر البر، إذ لو علمنا أن طول الخليج العربي، من ساحل البصرة إلى مضيق هرمز، يصل إلى ١٠٠٠ كيلو متر [١٥] وان هذه المسافة يمكن قطعها في أسبوع، فإن ثلاثة أيام تعني أن المسافة المقطوعة هي ٥٠٠ كيلو مترًا، وهي نفس المسافة التي تفصل البصرة عن البحرين. أما القسم المتعلق بخوضهما منطقة مياه الموت فقد وصفت لنا الملحمة طريقة تلافي هذه المياه من خلال التعليمات التي وجهها أور شنابي إلى جلجامش ونفذها الأخير بكل دقة. ما يجعلنا نتساءل عن ماهية هذه المياه، هل هي إضافة من الراوي غرضها التهويل، أم هي كناية عن المياه العميقة في وسط البحر حيث تمثل هذه المياه مصدر خطر على البحارة؟ إن تحديد المسافة التي قطعتها السفينة أثناء عبورها بحر الموت يعد أمرًا في غاية الصعوبة، ومن الناحية الوصفية يمكن أن نعد زمن ساعة كتقدير معقول لقطع هذه المياه برمتها استنادًا إلى تقدير أن كل مردي يستغرق نصف دقيقة حتى يكتمل الدفع به.

---

[١٤] باقر، ملحمة كلكامش، ص ١٤٣ – ١٤٤.

[١٥] يذكر أحد الباحثين أن مساحة الخليج العربي تقدر بـ ٢٢٦ ألف كيلو متر يقارب طوله ١٠٠٠ كيلو متر وعرضه يتراوح بين ٣٤٠ كيلو متر في منطقة الوسط و٦٠ كيلو متر في مضيق هرمز. كريم ، حسين حميد ، مراجعة لتكوينية الخليج العربي، مجلة الخليج العربي، العدد ٣- ٤، ١٩٦٨.

كذلك يضعنا النص في مقابل تساؤل آخر عن الطريقة التي اتخذتها السفينة في رحلتها: هل اعتمدت في سيرها على الأشرعة كما يحصل في رحلات مماثلة، أم أنها اعتمدت على المرادي قبل ولوجها مياه الموت – والطريقة الأخيرة بالغة الصعوبة في وسط بحر هائج تغلفه المخاطر ويمتد إلى مسافة بعيدة؟ كذلك نلحظ إشارة تبرز في خاتمة النص عن قيام جلجامش بنشر ملابسه كأنها شراع: هل يعني ذلك أنهم لم يعتمدوا على الأشرعة قبل هذا الوقت؟

إن افتراض أن تكون الأشرعة قد اعتمدت في خاتمة الرحلة فقط يبدو غريبًا إلا إذا تصورنا أنها كانت معتمدة في أول الرحلة إلى أن خاضا مياه الموت حيث تمزقت بفعل الأمواج العاتية مما اضطر جلجامش إلى اتخاذ ملابسه بديلاً عنها، وهو أمر معقول.

٥

أما عند نزول جلجامش على بر الجزيرة، أو المكان الذي يقطنه أوتو نبشتم، فقد لاحظ انزعاج أوتو نبشتم من قدومه إليه [١٦]، وهو أمر معتاد في مثل هذه الحالات التي قد يحصل فيها بعض الأذى.

لقد وجد جلجامش، والحيرة تملأ وجهه، أن الرجل الذي جاء لأجله لا يختلف عنه اطلاقًا، بعد أن تصوره في عقله نشطًا مفعمًا بالحيوية وقويًا كحال من يملك الخلود الجسدي فإذ هو يجده عكس ذلك ضعيفًا كسولاً مضطجعًا على ظهره [١٧]، فأدرك من فوره بؤس هذا الخلود لأن خلودًا مع الكسل والضعف هو أشبه بالموت، بل هو أسوء منه بكثير، ما جعله يدرك استحالة الخلود الذي سيفقد قيمته فور حصوله عليه، وهذا دليل على عمق الملحمة وارتباطها بفكر وادي الرافدين في تلك الفترة. لقد حصل جلجامش، ومن بعده قراء الملحمة، على حكمة ثمينة كانت هي خاتمة رحلة جلجامش البحرية، حيث نطق أوتو نبشتم قائلاً:

إن الموت قاس لا يرحم

هل بنينا بيتًا يدوم إلى الأبد

هل ختمنا عقدًا إلى الأبد

وهل يقتسم الإخوة ميراثهم ليبقى أبد الدهر

---

[١٦] باقر، ملحمة كلكامش، ص ١٤٤.
[١٧] المصدر نفسه ، ص ١٥٠.

الفراشة ما إن تخرج من شرنقتها لتبصر نور الشمس

حتى يحين أجلها

ولم يكن دوام وخلود أبدًا

ما أعظم الشبه بين النائم والميت

ألا تبدوا عليهما الهيئة ذاتها [١٨].

بعد هذه الكلمات عاد جلجامش إلى وطنه مشبعًا بالمعرفة، مقتنعًا بمصيره المحتوم. ولذا لم يصبه الاضطراب أو تداهمه الوساوس بعد أن فقد عشبة تجديد الحياة التي إلتهمتها الأفعى عند وقوفه لشرب الماء من إحدى العيون [١٩].

ومن الجدير بالذكر أن حصول جلجامش على هذه العشبة جرى وفق الطريقة التقليدية المتبعة في الغوص حيث استنشق كمية كبيرة من الهواء وغاص بواسطة ثقل وضعه في إحدى قدميه، وعندما استقر في القاع فك الثقل وأخذ يبحث عن العشبة، وبعد أن وجدها عاد سابحًا إلى السطح [٢٠]. وهي الطريقة التقليدية التي يتبعها صائدو اللؤلؤ والمحار في الخليج العربي. وهذه الطريقة التي اعتمدها جلجامش علَّمه إياها أوتو نبشتم الذي يبدو أنه مطلع على أسرار هذه المهنة التي تمثل إحدى مصادر الدخل في الجزيرة، وهو ما يعطينا دليلاً على قدم مهنة الغوص. ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن الناس في ذلك المكان كانوا يعيشون في مجتمع متمدن له أعرافه وقوانينه التي تمثل قوانين المقرات التجارية من حيث تمتعها بقدر واسع من الحرية والاستقرار مبني بدرجة كبيرة على التعاون والمصالح المشتركة في ظل نوع من السلطة التي تتيحها أوضاع المنطقة وظروفها الاجتماعية والحضارية.

نستنتج من ذلك ما يلي:

إن النص الذي يتكلم عن عبور جلجامش لبحر الموت يعبِّر عن رحلة بحرية قديمة.

إن النص الذي يتكلم عن هذه الرحلة، والذي يمثِّل جزءًا من ملحمة جلجامش، يعد أقدم وصف لرحلة بحرية مدونة في التاريخ.

---

[١٨] باقر ، ملحمة كلكامش ، ص ١٤٧.
[١٩] المصدر نفسه ، ص ١٦٦.
[٢٠] المصدر نفسه ، ص ١٦٥.

إن هدف تلك الرحلة، وفق ما لدينا من معطيات، هو جزيرة البحرين التي يرجح الباحثون أن تكون هي دلمون جنة السومريين بحسب أساطيرهم.

ارتبطت الرحلة بفكر بلاد الرافدين ونزعته المادية التي ترى في الموت ناهية أبدية وخاتمة لا يمكن الخلاص منها أبدًا.

وبالتالي يمكننا الاستدلال، من خلال هذا النص، على قدم الرحلات البحرية ذات الصفة الاستكشافية، حيث تسبق رحلة جلجامش البحرية معظم الرحلات البحرية المدونة بما في ذلك أقدم الرحلات الفينيقية والإغريقية بما لا يقل عن عشرة قرون.

كانت الفرضية الأساسية للمؤرخين الأوائل ان تأريخ جنوب العراق كان خلال الألف الثالث قبل الميلاد مشوبا بالصراع القومي بين السومريين والأكديين ، ليس بسبب الفوارق اللغوية وحسب بل وبسبب الفوارق الدينية والسياسية والأجتماعية

والفنية ، وقد دام الصراع القومي امدا طويلا حتى تمكن الاكديون الذين هم طليعة الأقوام السامية من احكام السيطرة على البلاد بعد الحرب الشهيرة بين لوكال زاكيزي (حدود ٢٤٠٠ ق.م) آخر ملوك عصر فجر السلالات وشاروكين الأكدي مؤسس الدولة الاكدية (حدود ٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م) [١]، ويستند اصحاب هذه الفرضية على جملة من المعطيات ابرزها : ما رافق الحرب بين زاكيزي وشاروكين من اصطفاف قومي بوقوف الدويلات السومرية إلى جانب لوكال زاكيزي ووقوف الأكديين إلى جانب شاروكين [٢] ، كما تشير نصوص الفأل والتواريخ المتأخرة إلى نشوب ثورات داخلية وخارجية في السنوات الأخيرة لهذا الملك لكنه افشلها جميعا ، ومن الأساليب التي اتبعها ضد الثائرين أنه تقرب بأسراهم إلى راعيته عشتار [٣]، وبالطبع فأن ما يعنيه النص أنه ربما قام بالتضحية بهؤلاء الأسرى قرابين لراعيته عشتار أو أنه وضعهم في خدمة حرمها ، إذ نعرف من مصادر اخرى ان ملوك بلاد الرافدين كثيرا ما يهدون أسرى الحروب إلى المعابد تقربا لآلهتها ، كما أشارت النصوص المسمارية إلى مذابح كبيرة ارتكبها نجل شاروكين وخليفته (رموش) بعضها يرقى في عرفنا المعاصر إلى مفهوم الإبادة الجماعية ، ففي احدى المدن يشير احد النصوص إلى مقتل اكثر من (٥٤) ألف شخص ، وهذا رقم قد يعني إبادة كل سكان المدينة ، كما تشير نصوص اخرى إلى قتل اعداد تتراوح بين ٩ و١٦ ألف شخص ، وربما يصل مجموع من قتلهم في بلاد الرافدين وحدها إلى ١٠٠ ألف شخص [٤] ، أما من قتلهم من خارج بلاد الرافدين فقد يزيدون على ذلك بأضعاف ، وفي نصوص اخرى تعود لنفس السلالة أشير إلى وضع الأسرى على (كراشيم) ، وقد طرحت عدة تفسيرات لهذه العبارة نظرا لأن لفظة (كراشيم) تعطي معنيين احداهما (مذبح) والآخر (معسكر) ، لذا اختلف المؤرخون في المعنى الذي تطرحه العبارة ، هل تعني ذبح الأسرى أم إرسالهم إلى معسكرات العمل بالسخرة ؟

---

[١] ساكز ، هاري ، البابليون ، ترجمة : سعيد الغانمي ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٥٠ .
[٢] حبيب ، باسم محمد ، أوما من عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي القديم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة واسط ، كلية التربية ، ٢٠١١ ، ص ٦٦ – ٦٩ .
[٣] باقر ، باقر ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٣٩٩ .
[٤] ساكز ، هاري ، البابليون ، ص ١٠٦ .

إلا أن الرأي الثاني بات اكثر قبولا بالنظر إلى كثرة من تشير إليهم النصوص ناهيك عن توفر إشارات لمعسكرات من هذا القبيل [٥]، عرفت كثيرا في العهد الأكدي [٦]، مع انها قد تكون مما ورث من العهود السابقة أنطلاقا مما تورده الملاحم والأساطير ، ففي ملحمة جلجامش ترد ابياتا شعرية تشير إلى أن رعية جلجامش كانت تستيقظ على ضربات الطبل لدفعها للعمل في سور اوروك [٧] ، كما يرى جاكوبسن إلى أن اسم (كرسو) في دويلة لكش يعني (الأسرى العراة) ، وقد اطلق عليها هذا الأسم لأنها كانت بالأساس مستوطنة لأسرى الحرب [٨] .

ومن الأدلة التي يكن أن تساق لتأكيد وجود الصراع القومي ما يرد من إشارات عن إستهداف تعرضت له المعابد السومرية في أثناء تلك الحروب ، إذ عرضت إحدى الأساطير تسليط الإله انليل أقواما غريبة على جيش نارام سين عقابا له على تجرئه على تدمير معبده (أي – كور) في نفر [٩]، لكن هناك من يشكك في حقيقة هذا الحدث الذي قد يكون مجرد دعاية لتشويه حكم هذا الملك الذي لم يرد في نصوصه ما يشير إلى قلة أحترامه للآلهة السومرية ، لا بل على الضد من ذلك تشير نصوصه إلى تعميره لمعبد الإله أنليل [١٠].

وعلى الرغم من الإشارات عن سيطرة الملوك الاكديين على المدن السومرية ، إلا أن هذه السيطرة لم تكن سيطرة مباشرة في جميع المدن ، بل هناك مدن احتفظت بإستقلالها الذاتي ، كما هو الحال مع مدينة آداب الذي أصبح حاكمها (مس كي كا لا) (Meskigala) (٢٣٤٠ – ٢٢٦٢ ق.م) أو (٢٣٧٧ – ٢٢٩٩ ق.م) حليفا للملوك الاكديين من شاروكين إلى مانشتوسو ، حتى أنه شارك في حملة الملك شاروكين نحو مدن ماري وأبلا ويارموتي [١١] كما وردت أشارات إلى حاكم من حكام أوما أتسم عهده بالإزدهار هو الحاكم (مي زاك) (me – sag) الذي عاصر الملكين الاكديين نارام سين وشاري كالي شري (sari – kal - sri) [١٢] ، ومن ثم فإن الحكم الأكدي قد لا يختلف كثيرا عن حركات التوحيد التي شهدتها بلاد سومر في

---

[٥] ساكز ، البابليون ، ص ١٠٧ .
[٦] حول معسكرات العمل في العصر الأكدي انظر : فوستر ، بنجامين ، أوما في حقبة سرجون ، نيوهافن ، ١٩٨٢ ، ص ٤٩ – ٥١ .
[٧] باقر ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٧٧ .
[٨] ساكز ، البابليون ، ص ١٠٧ .
[٩] السعدي ، حسن محمد محي الدين ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، (اسكندرية ، ١٩٩٨) ، ص ٨١ .
[١٠] الأحمد ، سامي سعيد ، العراق القديم ، ج٢ ، (بغداد ، ١٩٨٣) ، ص ٣٩ .
[١١] سعدون ، أبا ذر راهي ، أرشيف حاكم مدينة أداب مس كي گال لا (دراسة في ضوء الوثائق والمدونات المسمارية) ، مجلة الأستاذ ، كلية التربية – جامعة بغداد ، العدد الخاص بالمؤتمر العلمي السادس لسنة ٢٠١٨ ، ص ١٩ .
[١٢] حبيب ، باسم محمد ، الأحوال السياسية لأوما من العصر الاكدي حتى نهاية حكم سلالة اور الثالثة ، مجلة لارك ، العدد السادس ، ٢٠١١ ، ص ٤٥ .

العصور السابقة ، أي أنه أيضا كان أتحادا من مدن مستقلة يرأسها حاكم أعلى هو ملك أكد ، مع فارق واحد وهو أن هذا الإتحاد لم يكن قصير الأمد كما هو الحال مع معظم الأتحادات السابقة بل كان طويل الأمد وبمدة بلغت مائة وخمسون سنة [١٣].

ومثل الأتحادات السابقة رفع الأكديون من منزلة الإلهين (أنو) و (أنليل) مع أعطاء أهمية للإلهة عشتار (أنانا) [١٤]، كما أستخدموا اللغة الاكدية إلى جانب السومرية في كتاباتهم [١٥]، فضلا عن تولي أفرادا أكديين لوظائف مهمة كما هو الحال مع وظيفة الكاهنة العليا لمعبد الإله (ننا) (سين) في أور التي تقلدتها أبنة شاروكين الأميرة الشاعرة (أن كيدو أنا) [١٦].

فالمرجح أن ما حصل بين السومريين والاكديين ليس سوى صراع خاضه الملوك والحكام من أجل الحكم بما في ذلك الصراع الذي جرى في نهاية الحكم الأكدي والذي شهد - على ما يبدو – تحالفا بين بعض الحكام السومريين والكوتيين ، إذ نشبت ثورة سومرية في الوقت الذي هاجم الكوتيون فيه البلاد ما أدى إلى أنهيار الحكم الاكدي وعودة البلاد إلى حكم دول المدن [١٧].

---

[١٣] باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات ، ج١ ، ص ٣٨٥ .
[١٤] السعدي ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٧٥ .
[١٥] الأحمد ، العراق القديم ، ج٢ ، ص ٦٠.
[١٦] باقر، مقدمة ج١، ص ٣٩٩ .
[١٧] حبيب ، الأحوال السياسية لأوما من العصر الاكدي حتى نهاية حكم سلالة اور الثالثة ، ص ٤٦ .

مكانة المعلم في العراق القديم

هناك أدلة كثيرة إلى ما كان يتمتع به المعلم في العراق القديم من منزلة ومكانة كبيرة منها :

١- الألقاب التي يلقب بها ، إذ تشير النصوص المسمارية إلى أن العراقيون القدماء كانوا يطلقون على مدير المدرسة لقب (أبو المدرسة) ، وعلى الأستاذ لقب (الأخ الأكبر) ، وهي ألقاب تدل على ما للمعلم من مكانة ومنزلة كبيرة ، فيما يشار إلى المتعلم بلقب (أبن المدرسة) دلالة على صلته القوية بها و بالقائمين على التعليم ، وهي صلة لا تنتهي بإنتهاء دراسته فيها بل تستمر حتى بعد تخرجه منها ، كما يشير إلى ذلك اللقب الذي يلقب به وهو (أبن المدرسة في الأيام الماضية) [١] .

٢- حالته المادية، فمعظم المعلمين - بحسب المصادر المتوافرة - من الطبقة الغنية ، ليس لإنحدار كثير منهم من عوائل غنية وحسب بل ولحصولهم على أجور عالية مقارنة بسواهم ، ففيما يخص إنحدارهم من عوائل غنية ، أشار عالم المسماريات (نيقولاس شنايدر) إلى أن معظم المتعلمين وبالتالي المعلمين ينحدرون من عوائل غنية ، وذلك بعد أن أستقصى االخلفية الأجتماعية لـ(٥٠٠) من المتعلمين ، إذ وجد أن آباءهم كانوا إما من الحكام أو الكهنة أو الضباط أو الموظفين الكبار كموظفي القصور و موظفي الضرائب والموكلين بالسجلات الحكومية والمشرفين ورؤساء العمال والمراقبين والمحاسبين وغيرهم [٢]، أما ما يتقاضوه من راتب ، فإن المصادر المتوافرة أشارت أن ما يتقاضاه المعلم من راتب ربما يفوق ما يتقاضاه بعض موظفي الدولة بما فيهم بعض العاملين في القصر ، فبحسب أحد المصادر أن نعجة واحدة هي مكافأة المعلم مقابل كل فرد يقوم بتعليمه ، فلو أشرف المعلم على تعليم ٥٠ طالبا ، لكن مقدار ما يتقاضاه في موسم دراسي واحد ، هو ٥٠ نعجة عدى ما يحصل عليه من هديا ومكافآت .

٣- زيادة الطلب على الكتبة ، فما تتمتع به البلاد من إزدهار إقتصادي كان له الأثر في زيادة الطلب على الكتبة ، الذين أخذت الحاجة إليهم تزداد بمرور الزمن ، سواء أكان بفعل توسع المعاملات الاقتصادية أم بفعل إتساع المهام المرتبطة بالمعابد و القصور وإشتمالها على تخصصات كثيرة ومتنوعة ، ما أدى إلى زيادة أعداد

---

[١] حول هذه الألقاب ينظر : كريمر ، صوموئيل ، السومريون : أحوالهم - عاداتهم - تقاليدهم ، ترجمة : فيصل الوائلي ، (الكويت) ، ص ٣٣٢ .
[٢] كريمر ، السومريون ، ص ٣٣٢ .

المتعلمين ، حتى بلغت أعدادهم الألاف في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد [٣]، ما نتج عنه تطور المدارس وإنتشارها في كافة أنحاء البلاد ، فأصبحت هناك إضافة إلى مدارس القطاع الخاص مدارس ملحقة بالقصور وأخرى بالمعابد لغرض تخريج الموظفين المتخصصين بإدارة هاتين المؤسستين ، وبالتالي زيادة الطلب على المعلمين وإرتفاع مكانتهم ومنزلتهم .

٤- تفاخر الملوك والحكام بتعليمهم ، إذ أن تفاخر الملوك والحكام بتعليمهم هو أبلغ دلالة على ما للمعلم من مكانة ومنزلة عالية ، فهو يشير إلى أن الملوك والحكام يعدون تعليمهم ميزة يتميزون بها عن غيرهم ، ما يعني تبجيلهم للعلم والمعرفة وتقديرهم للمعلم ، إذ أشير إلى الملك (شولكي) (٢٠٩٦ - ٢٠٤٨ ق.م) ثاني ملوك سلالة أور الثالثة بإنه كان يتقن الكتابة والأدب وأن الكثير من المدائح والتراتيل التي وضعت لتقديسه يرجح أنها من نظمه [٤]، وما يشير إلى ذلك أيضا نص يعود للملك الآشوري (آشور بانيبال) (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م) ، تضمن تفاخره بما لديه من معرفة ، وذلك بما نصه " درست كلمة نابو وأستوعبت فن الكتابة بكامله وكذلك معارف المتخصصين جميعهم " [٥].

---

[٣] كريمر ، السومريون ، ٣٣٠ .

[٤] باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (بيروت ، ٢٠٠٩) ، ص ٤٢٢ .

[٥] سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم ، موجز التاريخ الحضاري ، (الموصل ، ١٩٩٣) ، ص ٢٦٧ .

المسرح هل كان له وجود في العراق القديم ؟

اختلف الباحثون حول وجود المسرح في العراق القديم ، بين من يرى عدم وجوده ، وأصحاب هذا الرأي طائفة كبيرة من الباحثين على رأسهم عالم المسماريات الشهير (صوموئيل كريمر)، الذي لم يشر - على حد علمي - إلى وجود المسرح في العراق القديم في أي بحث من بحوثه [١]، ومن هؤلاء أيضا كثير من الباحثين العراقيين على رأسهم طه باقر [٢]، وبين من يعتقد بوجوده ، وأبرزهم الدكتور فوزي رشيد ، الذي أستند في إثبات رأيه على أدلة عدة من بينها : العثور على مدخل في مدينة الوركاء يعتقد بإنه من المداخل التي تؤدي إلى العالم الأسفل ، وهذا المدخل - بحسب رأيه - كان يستخدم في تمثيل مشاهد نزول (إنانا) (عشتار) إلى العالم الأسفل [٣] ، ومن أدلته أيضا : وجود ألفاظ تدل على ممارسة التمثيل ، منها اللفظة الأكدية (موميلو) ومؤنثها (موميلتو) ، تقابلها في اللغة السومرية لفظة (إينة دودو) وتعني التحدث إلى الجمهور ، أما المصدر (ميلولو) التي جاءت منه اللفظة الأكدية - ففي نظره - لايعد دليلا على وجود مسرح عراقي قديم وحسب ، وإنما أيضا على أن هذا المسرح هو الأصل الذي تطورت منه المسارح الأخرى ، وبالذات الأوربية ، لأنه يشير إلى معنى (يلعب) الذي هو المعنى ذاته الذي تشير إليه لفظة تمثيل الأوربية [٤].

أما نحن فنرى أن نفي وجود مسرح عراقي قديم إستنادا لعدم تطرق بعض الباحثين إليه أمر يتنافى مع أصول وقواعد البحث العلمي ، لإن هؤلاء ربما لم يهتموا بهذا النوع من الدراسات ، أما الذين نفوا وجوده إنطلاقا من عدم توافر مستلزمات المسرح من صالة عرض ونصوص مسرحية وممثلين ، فهؤلاء يتجاهلون أننا نتحدث عن عصور قديمة لم تكن هذه المستلزمات فيها من الشروط الأساسية للمسرح على الرغم من أهميتها للمسرح الحديث ، في المقابل لانجد أن الأدلة التي قدمها الدكتور فوزي رشيد كافية لحسم هذا الأمر والإقرار بمعرفة العراقيين القدماء بهذا اللون من الفن ، لإن وجود مدخل إلى العالم الأسفل لا يعني بالضرورة أنه مخصص لتمثيل مشاهد مسرحية ، بل ربما لإقامة طقوس وفاعليات دينية لا أكثر ، والشيء نفسه فيما يخص الألفاظ التي أشير إلى صلتها بمعنى التمثيل ، فهي ربما لم تكن آنذاك تحمل دلالات لها علاقة بالمسرح ، بل بأمور أخرى مختلفة .

---

[١] كما هو الحال مع مؤلفيه المهمين : السومريون أحوالهم _ عاداتهم - تقاليدهم و من ألواح سومر .
[٢] كمثال مؤلفيه المهمين : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ و مقدمة في أدب العراق القديم .
[٣] رشيد ، فوزي ، المسرح عراقي الأصل ، مجلة الإستشراق ، العدد ٥ ، بغداد ، ١٩٩١ ، ص ٢٧٢ .
[٤] المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

ونضيف إلى ذلك بعض الجوانب التي لها علاقة بحضارة بلاد الرافدين ، كغلبة الطابع العملي على مسار هذه الحضارة ، وما تتسم به ذهنيتها من التشاؤم الذي يجعلها زاهدة بالجوانب الترفيهية .

لذا نحن بحاجة إلى دراسات أوسع وأعمق حتى نستطيع أن نبت في صحة أيا من هذين الرأيين ، وإلى أن يحين ذلك نحن مضطرون إلى عد هذه القضية قضية إشكالية كما هو الحال مع المشكلة السومرية وغيرها ، ولنتأمل خيرا من مستقبل الدراسات المسمارية ، فمئات الآلاف من النصوص المسمارية التي تنتظر الدراسة ، وآلاف المواقع الأثرية التي تنتظر التنقيب ، ربما تستبطن مفاجآت كبيرة قد يكون من بينها تغيير نظرتنا إلى المسرح العراقي القديم .

النبي يونس وأوديسيوس هل هما شخصية واحدة ؟

القرآن الكريم كتاب تعاليم وعبر ، إذ أن فيه أحداثا وقصصا كثيرة تخدم العقيدة التي يبشر بها ، وهي العقيدة التي أرادها أن تكون جامعة لما سبقها من ديانات ، لذا نجد فيه قصصا تنتمي لحضارات مختلفة ، منها : ملحمة الأوديسة اليونانية [١]، التي لا يمكن نكران شهرتها وذيوع صيتها حتى في ذلك الوقت ، لاسيما بالنسبة لمكة المعروفة بروابطها التجارية مع الشام الولاية البيزنطية آنذاك ، أما الموضع الذي ورد فيه ذكر هذه القصة ، فهو سورة الأنبياء ، الآيتين (٨٧ - ٨٨) ، وذلك بما نصه : " وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ " [٢]، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر أوديسيوس بطل الأوديسة بالأسم ، إلا أن سياق الآيتين يعرض أنه هو المشار له بذي النون (النبي يونس) ، وذلك للأسباب الآتية :

١- أن الإعتقاد بإن الإنسان يمكنه أن يتحدى الآلهة أو يسلم من غضبها غير موجود في الديانات الشرقية ، فهو- على الارجح - إعتقاد وافد من حضارات أخرى ، وليست هناك حضارة تعتقد بذلك آنذاك سوى الحضارة اليونانية التي ابرزت أبطالا تحدوا الآلهة كما في البطل (هرقل) ، لذا من المنطقي أن نعتقد بإن ذا النون أو النبي يونس من الشخصيات اليونانية التي أراد القرآن الكريم أن يعتمد قصته عبرة لمن يريد أن يتحدى الله أو يكون مغاضبا له .

٢- أن إعتقاد ذا النون بإن الله لن يقدر عليه هو نظير لإعتقاد (أوديسيوس) بطل الأوديسة بإن الإله (بوسيدون) - إله البحر في الحضارة اليونانية - عاجز عن الإضرار به [٣]، إذ ليس لدينا في الحضارات الشرق - أوسطية ما يشابه ذلك ، بإستثناء ملحمة جلجامش ، التي عرضت موقف جلجامش من الآلهة وتحديه لها [٤]، وهو موقف لا نجد له نظير في قصص أخرى من الحضارة ذاتها ، ما يعني أما أنه لا أثر له في الإعتقادات السائدة آنذاك أو جرى طمسه بتأثير ما توالى من متغيرات على أصعدة عدة سياسية وأجتماعية ودينية ، لذا فإن أقرب شخصية يمكن ربطها بشخصية ذا النون هي شخصية أوديسوس بطل ملحمة الأوديسة اليونانية ، وهذا ما

---

[١] هوميروس ، الأوديسة ، ترجمة : دريني خشبة ، (بيروت ، ٢٠١٣) .
[٢] سورة الأنبياء ، الآيتين (٨٧ - ٨٨) .
[٣] هوميروس ، الاوديسة ، ص ١.٦ .
[٤] ينظر : باقر، طه ، ملحمة كلكامش وقصص أخرى عن كلكامش والطوفان ، (بغداد ، ١٩٨٦) .

تؤكده أيضا تسمية (يونان) التي يشار بها إلى النبي يونس ، إذ يمكن أن تكون من الإشارات الدالة على أصوله وجذوره اليونانية .

٣- أن كلا الشخصيتان أي (ذا النون) (النبي يونس) و أوديسيوس واجهتا مواقف صعبة ، ذا النون بغرقه بالبحر و إستقراره في بطن الحوت ، وأوديسيوس بضياعه في وسط البحر وتعرضه لمخاطر وتحديات عدة ، لم يكونا قادرين على مواجهتها بقدراتهما الخاصة التي كانت أعجز من أن تخلصهما مما واجهاه من مواقف ، فكانت هذه التجربة الصعبة دافعا إلى الإيمان بإن خلاصهما لا يمكن أن يتم إلا برضا الإله الذي يعبدان .

٤- كلا الشخصيتان عبرتا عن أسفهما لما بدر منهما من مواقف تجاه ما يعبدان ، فأعلنا ندمهما منها ، ذا النون بإقراره بوحدانية الله وخطأ ظنه بما يمكن لله أن يفعل به ، و أوديسيوس بإعترافه بإن نجاته لا يمكن أن تتم إلا بمساعدة الآلهة [٥]، فكان هذا هو السبب الوحيد في خلاصهما مما هم فيه ، ما يعني إتفاق كل من القصة القرآنية والملحمة اليونانية على أن مصير الإنسان ليس محددا بيده بل بإرادة الإله الذي هو وحده من يستطيع أن يضمن للإنسان الحياة الرغيدة أو يعرضه للصعوبات و يوقعه في المخاطر ، وإن لا مناص للإنسان من الإخلاص للإله الذي يعبد إذا أراد أن يعيش بأمان وسعادة .

[٥] هوميروس ، الأوديسة ، ص ٢٠٧ .

الأنشطة الاقتصادية ومصادر دراسة الفكر الاقتصادي في العراق القديم

قبل أن نتناول الفكر الاقتصادي في العراق القديم ، لابد لنا أن نعرض لمحة موجزة عن أهم الأنشطة الاقتصادية التي مارسها العراقيون القدماء ، فضلا عن أهم المصادر التي يمكننا أن نستعين بها في دراسة الفكر الاقتصادي للعراق القديم .

أولا : الأنشطة الاقتصادية

تتميز بلاد الرافدين بخصب أراضيها ، ووفرة مياهها ، وغناها بالموارد الاقتصادية [١]، الأمر الذي جعلها أحد مراكز الجذب السكاني الرئيسة في منطقة الشرق الأدنى القديم [٢]، إذ نتج عن توفر الموارد الاقتصادية ، تنوع في الأنشطة الاقتصادية للسكان ، فبينما أمتهن غالبية السكان الزراعة ، التي أصبحت عماد اقتصاد البلاد في العصور القديمة ، أمتهن آخرون أنشطة أخرى مثل : الرعي والتجارة والأنشطة المالية والحرفية ، التي هي أيضا لها علاقة بحرفة الزراعة ، فتربية الحيوانات من الأعمال التي يمارسها الفلاح إلى جانب ممارسته الزراعة ، وكذا الحال فيما يخص التجارة التي تساعد الفلاح في مبادلة منتجاته بما يحتاجها من المنتجات الأخرى ، وهذا ما يصدق أيضا على الأنشطة الحرفية التي توفر للفلاح الآلات و الأدوات التي يحتاجها في حياته اليومية ، أما النشاط المالي فتتمثل أهميته في توفير الأموال التي تساعد الفلاح في تطوير عمله و تحسين إنتاجه ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الواقع الاقتصادي للبلاد ، الذي أصبح سمة من سماتها طوال العصور الحضارية والتاريخية القديمة ، أما أهم الأنشطة الاقتصادية التي مارسها السكان في تلك المدة ، فيمكن حصرها بالآتي :

١- النشاط الزراعي

يعد النشاط الزراعي في مقدمة الأنشطة الاقتصادية التي مارسها سكان بلاد الرافدين في العصور القديمة [٣]، ففضلا عن كون البلاد أحد المراكز التي شهدت انقلاب العصر الحجري الحديث ، ونشأة الإنتاج الزراعي [٤]، مثلت البلاد أيضا أحد

---

[١] أوتس ، جون ، بابل تاريخ مصور ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الجلبي ، (بغداد ، ١٩٩٠) ، ص ١٥

[٢] اوبنهايم ، ليو ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة : سعدي فيضي عبد الرزاق ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ٦٠ – ٦١ .

[٣] سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، (الموصل ، ١٩٩٣) ، ص ٢٢١ .

[٤] الدباغ ، تقي ، الثورة الزراعية والقرى الأولى ، حضارة العراق ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٨٥) ، ص ١١٩ .

المراكز الكبرى في إنتاج المحاصيل الزراعية ، لاسيما المحاصيل الغذائية : الحبوب والفواكه والخضروات وغيرها [٥]، والإنتاج الزراعي في العراق يعتمد بالدرجة الأولى على مياه نهري دجلة والفرات ، وبالدرجة الثانية على مياه الأمطار ، الأمر الذي تطلب تدخل الدولة لتنظيم استغلال الموارد المائية ، فإلى جانب الحاجة إلى اعتماد الري الاصطناعي بواسطة مشاريع الري ، التي تتمثل بشق الجداول والقنوات لري أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية ، فضلا عن إنشاء السدود والنواظم للسيطرة على المياه وتوزيعها على الحقول [٦]، ، هناك حاجة لحماية الأراضي الزراعية من أخطار الفيضانات السنوية المدمرة [٧]، الأمر الذي تطلب تشييد السدود وكري الأنهار والجداول لاستيعاب مياه الفيضانات ، وهذا ما أدى إلى أن يتركز الاستيطان بالقرب من ضفاف النهرين وبالأخص نهر الفرات [٨] ، ونظرا لانقسام البلاد إلى دويلات عدة في عصر فجر السلالات ، فقد شهدت البلاد صراعات ضارية للتحكم بالري والسيطرة على الأراضي الزراعية الخصبة ، إذ تعد الحرب الطويلة بين دولتي أوما ولكش نموذجا لهذا النوع من الصراعات التي نتجت عنها خسائر اقتصادية كبيرة [٩]، الأمر الذي دفع الملوك والحكام إلى نشدان الوحدة السياسية ، وهو ما تكلل بالنجاح أخيرا بقيام الحكم الاكدي الذي أنهى نظام حكم دول المدن السومرية وأرسى نظام الحكم المركزي مسدلا الستار على عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ – ٢٣٥٠ ق.م) [١٠]، ما أدى إلى إنشاء أول نظام موحد للري في بلاد الرافدين ، ونتيجة للوحدة السياسية التي شاعت في هذا العصر والعصور التالية ، فقد أدى ذلك إلى ازدهار القطاع الزراعي ، حتى أصبح في مقدمة القطاعات التي تعتمد عليها الدولة في الحصول على الموارد المالية ، إذ أسهم ذلك في تنوع نظام الملكية [١١]، و تقدم أساليب الإدارة والجباية ، فضلا عن تطور الآلات والأدوات المستعملة في الإنتاج الزراعي [١٢].

٢- النشاط التجاري

للنشاط التجاري في العراق جذور ضاربة في القدم ، إذ تعود بداياته إلى عصور قبل التاريخ [١٣]، فنظرا للحاجة الماسة إلى المواد التي تحتاجها الحرف اليدوية ، فقد

---

[٥] سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٢٩ – ٢٣١ .
[٦] المصدر نفسه ، ص ٢٢١ – ٢٢٣ .
[٧] المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .
[٨] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (دار الوراق ، ٢٠٠٩) ، ص ٥٧ – ٥٩ .
[٩] المصدر نفسه ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .
[١٠] المصدر نفسه ، ص ٣٩٦ .
[١١] عامر سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٢٤ – ٢٢٨ .
[١٢] المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .
[١٣] المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ .

استلزم الحال بناء روابط تجارية داخلية وخارجية [١٤]، الأمر الذي ساهم من جانب في بيع منتجات البلاد الزراعية ، ومن جانب آخر في استيراد الخامات التي تحتاجها الصناعات اليدوية التي كانت مزدهرة آنذاك ، ولتيسير الاتصال بالأقاليم الخارجية ، كان لابد من تأمين الطرق التي تسلكها الرحلات التجارية ، فضلا عن توفير وسائل نقل برية ومائية مناسبة لنقل المنتجات المصدرة والمستوردة ، ففي ما يخص النقل البري ، جرى الاعتماد على قوافل الحيوانات وبالأخص البغال والحمير في عمليات التبادل التجاري ، فيما استخدمت القوارب والسفن في الرحلات النهرية والبحرية ، التي نجحت في ربط البلاد تجاريا بالبلدان البعيدة مثل : أرمينيا والحبشة وبلاد السند [١٥]، إذ لم يقتصر أثر هذه الرحلات على تمتين الروابط التجارية ، بل و في نقل المظاهر الحضارية من مكان إلى آخر ، ونظرا للتكلفة العالية لهذه الرحلات فقد جرى تمويلها من قبل مؤسستي المعبد والقصر ، ثم ظهرت فئة متخصصة هي فئة التجار ، أخذت على عاتقها إدارة هذا النوع من العمل ، إذ أصبح لأفرادها مكانة كبيرة في المجتمع ، نظرا لتنوع أعمالهم ، وسعة صلاتهم ، فضلا عن امتلاكهم لأموال كبيرة [١٦]، إذ يمتلك كل تاجر عدد من الشركاء أو المساعدين المنتشرين في العديد من المقرات التجارية ، التي اشتهرت منها تلك المقرات المنتشرة في آسيا الصغرى [١٧]، من أجل عقد الصفقات والإشراف على حركة القوافل بين البلاد والأقاليم التي توجد فيها تلك المقرات .

٣- النشاط الحرفي

يحتاج النشاط الحرفي إلى المواد الخام ، التي تنقسم ما بين تلك التي يمكن الحصول عليها من داخل البلاد وتلك التي يتم استيرادها من الخارج ، ومن ثم فقد شاعت عمليات تصنيع المنتجات النباتية والحيوانية التي تعتمد على المواد الخام المتوفرة في الداخل ، إلى جانب عمليات تصنيع المنتجات التي تعتمد على المواد الخام المستوردة من الخارج ، التي لم يمنع افتقار العراق لها من ظهور الحرف اليدوية المرتبطة بها ، ويدل إقدام أصحاب هذه الحرف على استيراد المواد الأولية التي تحتاجها حرفهم [١٨]، على سعة الإقبال على منتجاتها [١٩]، وعلى أهميتها لحياة السكان ، فضلا عن إبرازها لمستوى الرفاه الذي يعيشه الناس آنذاك ، وتنقسم الحرف بحسب مالكيها إلى

---

[١٤] بوستغيت ، نيكولاس ، حضارة العراق وآثاره ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الجلبي ، (بغداد ، ١٩٩١) ، ص ١٦ .
[١٥] بوستغيت ، حضارة العراق وآثاره ، ص ٣٧٨ .
[١٦] عامر سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .
[١٧] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ص ٥٢٨ – ٥٣٢ .
[١٨] عامر سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٥٣ .
[١٩] بوستغيت ، حضارة العراق وآثاره ، ص ١٧ .

قسمين : الحرف التابعة للمؤسسة ، سواء أكانت مؤسسة المعبد أم القصر[٢٠]، والحرف العائدة إلى القطاع الخاص ، ففيما يخص النوع الأول من الحرف ، فإن معظم منتجاتها تخصص لخدمة المؤسسة التي تنتمي لها ، فضلا عن القائمين علية من الكهنة والإداريين والمشرفين ، الأمر الذي جعلها خاضعة لإدارة المؤسسة وإشرافها " إذ كان الصناع يستلمون المواد الخام ويسلمون السلع المصنوعة " [٢١]، أما فيما يخص النوع الثاني من الحرف التي راجت في العصر البابلي القديم وما تلاه من عصور [٢٢]، فإنه لا يخضع لأي إشراف سوى إشراف رب العمل نفسه ، إذ يعمل في هذه الحرف عمال مهرة سواء أكانوا من أبناء صاحب الحرفة أو متبنيه أو من العمال الذي يعملون مقابل أجور معينة [٢٣]، وينتظم أصحاب الحرف في تجمعات مهنية يرأسها أكثرهم شهرة ، من أجل فض نزاعاتهم ، وضمان حقوقهم ومصالحهم ، فضلا عن تمثيلهم أمام السلطات [٢٤].

٤- النشاط المالي

راجت في العراق القديم ، الأنشطة المالية ، التي تتمثل في معاملات الإقراض [٢٥] والتأمين والإيداع [٢٦]، إذ لم يمنع غياب النقود من رواجها ، ويعزى ذلك لاستعمال وسائل نقدية بديلة ، تمثلت بشكل خاص بمادتي الحبوب والمعادن [٢٧]، إذ كان للمؤسسات وبالأخص مؤسسة المعبد دور ريادي في نشوء هذا النوع من الأنشطة الاقتصادية [٢٨]، ثم ما لبث أن اتسع نطاقها بعد ذلك ، أثر شيوع ممارستها من قبل القطاع الخاص ، لاسيما في العصر البابلي القديم ، إذ وضع القوانين العراقية القديمة ضوابط لتنظيمها ، منعا لما يمكن أن يحصل من خلافات تهيمن على مسار العمل ، الأمر الذي أدى إلى نشوء المصارف ، التي اتسعت أعمالها في العصر البابلي الحديث [٢٩].

---

[٢٠] سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٥٤ .
[٢١] تيومينيف ، اقتصاد الدولة سومر القديمة ، العراق القديم ، ترجمة : سليم طه التكريتي ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ١٢٢ .
[٢٢] سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٥٥ .
[٢٣] سليمان ، عامر ، النظم المالية والاقتصادية ، العراق في موكب الحضارة ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٨٨) ، ص ٤١٠ .
[٢٤] عبد الواحد ، فاضل وعامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، (بغداد ، ١٩٧٩) ، ص ١٠٠ .
[٢٥] سليمان ، عامر ، القانون في العراق القديم ، (بغداد ، ١٩٨٧) ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .
[٢٦] المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .
[٢٧] سليمان ، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري) ، ص ٢٤٣ .
[٢٨] رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة : حسين علوان حسين ، (بغداد ، ١٩٨٤) ، ص ٥٣٦ – ٥٣٧ .
[٢٩] المصدر نفسه ، ص ٥٣٩ .

ثانيا : مصادر دراسة الفكر الاقتصادي

يقسم الفكر الاقتصادي إلى ثلاثة أقسام : ما يسمى بالتحليل الاقتصادي والنظرية الاقتصادية ، وما يسمى بالسياسة الاقتصادية ، فضلا عن ما يسمى بالمذهب الاقتصادي ، ففيما يخص التحليل الاقتصادي أو النظرية الاقتصادية ، فيقصد به : القوانين والروابط التي تحكم العلاقات والظواهر الاقتصادية المختلفة ، أما السياسة الاقتصادية ، فيقصد بها : السبل والوسائل التي تتبعها السلطات العامة ، للوصول إلى هدف معين وغاية محددة ، فيما يقصد بالمذهب الاقتصادي : الطريقة المتبعة في تسيير القطاع الاقتصادي للبلد [٣٠]، وتستند دراسة الفكر الاقتصادي إلى جملة من المصادر أهمها :

١- الألفاظ والمصطلحات

للألفاظ والمصطلحات السومرية والأكدية أهمية كبيرة في دراسة الفكر الاقتصادي للعراق القديم ، وذلك لسببين : (الأول) لأن وجود الألفاظ والمصطلحات يعد دليلا على وجود الفكر الاقتصادي ، وإلا فما الغاية من وجودها ، أما (الثاني) فينطلق من أهمية الألفاظ والمصطلحات في إبراز مدى التطور الذي بلغه هذا الفكر في تعاطيه مع الشأن الاقتصادي ، وذلك بما تمثله من الدقة والتخصص ، لكن ما نلاحظه فيما يخص موضوعنا ، أننا لم نعثر على أي لفظة يمكنها أن تعبر عن مفهوم أو مصطلح الفكر الاقتصادي ، بل هناك ألفاظ تتناول مفاهيم فكرية واقتصادية مختلفة ، ففيما يخص مفهوم الفكر ، لدينا طائفة متنوعة من الألفاظ ، التي تعطي دلالات متقاربة منها : لفظة (GIS – HUR) السومرية ، التي تقابلها لفظة (Usurtu) الأكدية ، التي تعطي معنى رسم أو خطة أو تصميم [٣١]، وهي معاني يمكن أن تشير إلى بعض النواحي التي لها علاقة بمفهوم الفكر ، فيما تجود علينا اللغة الأكدية بكثير من الالفاظ القريبة من معنى الفكر ، مثل لفظة (Nemequ) الأكدية ، التي تعطي معنى حكمة ، كما هو الحال مع عنوان القصيدة الأدبية الشهيرة (لأمتدحن رب الحكمة [Nemequ Sa Ea])[٣٢] ، إذ يستبان من هذه العبارة ، أن الحكمة هنا لا تعني النصح والإرشاد ، بقدر ما تعني الفهم والذكاء ، الذي يتيح استقصاء بواطن الأشياء ، وهو ما تشير إليه أيضا قريبتها لفظة (Emqu) الأكدية ، التي تعطي معنى المتعمق أو المتمرس بالحكمة ، أي الذي يمتلك فهما وذكاءا خارقا ، كما هو الحال مع جملة (أسالوخي الحكيم القائد معزم الآلهة) (Emqu Wasru Masmas Ili Dsalluhi) ، أما الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمفهوم الفكر ، فمنها لفظة (

---

[٣٠] حمد لبيب شقير ، تاريخ الفكر الاقتصادي ، (مصر ، ١٩٨٨) ، ص ٦ – ٧

[٣١] اوينهايم ، بلاد ما بين النهرين ، ص ٢٥٧ .

[٣٢] الجبوري ، صلاح سلمان رميض ، أدب الحكمة في وادي الرافدين ، (بغداد ، ٢٠٠٠) ، ص ٦٧ .

Mudu) الأكدية ، التي تعطي معنيين ، اولهما : معنى العارف أو الخبير بكل شيء ، كما تطرحه عبارة (الحكيم بين الآلهة هو العارف بكل شيء) (Apkal Ili Mudu Mimma Susu) ، وثانيهما معنى الماهر ، مثل جملة (مهارة النجار) (Naggaru Mudu) ، وأيضا جملة (الحرفي أو المحترف الذي يعرف تجارتهم)[٣٣] (Ummani Mudu Sapri] ، فيما تعطي لفظة (Meresu) الأكدية ، معنى معرفة أو أدراك ، كما هو الحال مع جملة (بمعرفة وأدراك أيا) (Ina Meresu Sa Ea) ، أما لفظة (Hassu) ، فتعطي معنى ذكاء أو عقل ، مثل عبارة (ذو عقل عظيم وذكاء قوة خارقة) (Palka Uzni hasis Emuqan puggul])[٣٤]، وكذا الحال فيما يخص الألفاظ التي لها علاقة بالاقتصاد ، فهي أيضا كثيرة ومتنوعة ، منها : لفظة (NI – KA) السومرية ، التي تعطي معنى : حسابات ، ومقابلتها لفظة (nikkassu) الأكدية [٣٥] ، وأيضا لفظة (NI - GA) السومرية ، التي تعطي معنى : ممتلكات أو أموال ، والتي تقابلها لفظة (makkuru) الاكدية [٣٦]، فضلا عن لفظة (TUK) السومرية ، ومقابلتها لفظة (rasutu) الاكدية التي تعطي معنى أموال أيضا [٣٧].

و هذه الألفاظ ، وان تقدم لنا الحجة على وجود فعاليات فكرية و اقتصادية محددة ، فأنها قد لا تقدم لنا ما يدعم وجود فكر اقتصادي ! ، فكيف يمكننا ان نستدل على وجود هذا الفكر ، مع عدم وجود الالفاظ الدالة عليه ؟ للإجابة نقول : أنه بما أن العراقيين القدماء ، لم يتعاطوا مع الفكر بشكل منفصل عن الممارسة الاقتصادية ، فإنهم لم يجدوا حاجة ، إلى ابتكار ألفاظ تصف هذا الفكر ، بوصفه ظاهرة مستقلة ، إنما تعاطوا معه كظاهرة متداخلة ومتصلة مع الممارسة الاقتصادية ، على الرغم من اهتدائهم ، إلى ألفاظ تصف مفهوم الفكر ، وفي الوقت ذاته ، مختلف أشكال العمليات الاقتصادية ، كما يلاحظ أيضا صلة هذه الألفاظ بالإله (أنكي) (أيا) ، الأمر الذي يعرض أحد أمرين ، إما أن الفكر بوصفه نشاط عقلي هو اختصاص حصري لهذا الإله ، أو أن لذلك علاقة بكونه إله الحكمة ، ومن ثم فإن أهم ما يبرزه الأمر الأول ، أن الفكر من الأشياء الخارقة التي لا يمكن للبشر أن يطالها ، فضلا عن عموم الآلهة الأخرى ، التي تستعين غالبا بهذا الإله عندما تواجهها مسألة أو مشكلة ما ، الأمر الذي يجعل من الحكماء مجرد متلقين للحكمة لا مجترحين لها ، أما ما يبرزه الأمر

---

[٣٣] الجبوري ، صلاح سلمان رميض ، أدب الحكمة في وادي الرافدين ، ص ٦٨ .
[٣٤] المصدر نفسه ، ص ٧٠ .
[٣٥] لابات ، رينيه ، قاموس العلامات المسمارية ، ترجمة : الأب البير أبونا ووليد الجادر و خالد سالم إسماعيل ، بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٦٩ .
[٣٦] المصدر نفسه ، ص ٣٥٧ .
[٣٧] المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .

الثاني ، فهو تدرج الفكر أو الحكمة ، من الحكماء البشر إلى الآلهة ، وصولا إلى حكيم الآلهة ، الإله (أنكي) (أيا) .

٢- الأساطير والملاحم

لا يمكن إغفال أهمية الأساطير والملاحم في دراسة الفكر الاقتصادي للعراق القديم ، لأن جزءا مهما من النتاج الفكري لبلاد الرافدين مرتبط بالملاحم والأساطير ، الأمر الذي عده بعضهم دليلا على غلبة الجانب الأسطوري على الجوانب الأخرى في هذه الحضارة ، فبحسب (كارين أرمسترونغ) فإن " من خصائص الذهن البشري قدرته على توليد أفكار وتجارب لا يمكن تفسيرها تفسيرا منطقيا " [٣٨]، لأن الذهن البشري في بحثه عن المعنى ، غالبا ما يقدم تفسيراته في إطار ما يملكه من خبرة ، قد لا تكون كافية لتفسير الظواهر تفسيرا منطقيا ، فيضطر إلى شحنها بالخيال ليجعلها مقبولة لديه ، فيما يرى (شتراوس) ، أنه يوجد وراء المعنى السطحي الظاهر لهذه القصص لا معنى آخر ، أي رسالة مشفرة ، وهو بذلك يتفق مع (فرويد) ، في عده الأسطورة ، على أنها حلم جماعي من نوع ما ، وأنها قابلة للتفسير ، بحيث نستطيع أن نكتشف المعنى الحقيقي لها [٣٩]، أما سبب شيوع نمط التفكير الأسطوري في العصور القديمة ، فيمكن ربطه بعجز الإنسان القديم عن إدراك الشروط الموضوعية اللازمة لتحقيق إنتاجه ، لكونه يتلقى هذه الشروط من المنظومة الحياتية السابقة لوجوده ، والتي لا دخل له في تكوينها ، ومن ثم يمكن تفسير الأساطير ، في إطار معرفتنا بالشروط المنتجة لها ، ومن بينها الطقوس والشعائر ، التي ينظر لها غالبا على أنها المظهر العملي للأسطورة ، فيسمح لنا فهم وظيفة الطقوس والشعائر ، فك طلاسم الشفرة التي تحملها الأسطورة ، أي ما تعرضه من معنى ، في إطار الواقع المنتج لها ، فالأسطورة تنقل إلى البدائي من الأفكار أكثر مما تحتويه مجرد القصة [٤٠] ، إذ أن الاسطورة في المجتمع الذي تنشأ فيه ، ليست مجرد قصة تروى ، بل ينظر لها على أنها حقيقة يعايشها الناس ، وهي لم تنبثق من الخيال المحض ، إنما هي واقع حي يعتقد بأنه كان موجودا في الماضي ، ثم بقيت تؤثر في العالم و في مصائر البشرية بشكل أو بآخر [٤١]، فالأسطورة كما العلم ، كلاهما يحاولان بلوغ الحقيقة ، فإذا كان صحيحا أن التقدم العلمي هو مسيرة قادت العلماء من خطأ إلى آخر ، فأن الصلة الطبيعية نفسها ، موجودة بين التفسيرات البدائية

---

[٣٨] أرمسترونج ، كارين ، تاريخ الأسطورة ، ترجمة : وجيه قانصو ، (بيروت ، ٢٠٠٨) ، ص ٨ .

[٣٩] ليتش ، أدموند ، " بنية الأسطورة عند شتراوس " ، ترجمة : فاضل السعدوني ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد (٢) ، ١٩٩١ ، ص ٦٦ .

[٤٠] المصدر نفسه ، ص ٥١ .

[٤١] مالينوفسكي ، برونسيلاف ، " الاسطورة في علم الاجتماع البدائي " ، ترجمة : فاضل السعدوني ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد (٢) ، ١٩٩١، ص ٤٩ .

للأساطير وأكثر النظريات حداثة ، التي يمكن عدها مجرد فرضيات ، سوف يقدر لها أن تهجر في يوم من الأيام ، فبحسب ما نعلم ، لم تكن فكرتنا عن الذرة في مستهل القرن العشرين ، سوى أسطورة لم يبرهن على صحتها إلا عندما تم تجاوزها وحسب [٤٢]، و الأسطورة بوصفها نتاج جماعي ، لابد أن تتسم بوحدة الموضوع ، على الرغم من تنوع مضامينها ، وذلك لأنها تعد تبريرا ودستورا وحتى مرشدا عمليا ، إلى الانشطة المتعلقة بها في أغلب الأحيان [٤٣]، ومن ثم فهي غالبا مثقلة بأكثر من محتوى ، وأن حملت هدفا محددا ، فإذا أردنا متابعة الفكر الاقتصادي عبر الاسطورة ، فإن الأمر يقتضي الإحاطة المسبقة بكلية الاسطورة ، ليتم بعد ذلك ولو من الناحية البحثية ، فرز المحتوى الاقتصادي ، كونه المحتوى الذي يتحدد بدلالته الفكر الاقتصادي ، مع ان ذلك لا يعني فصله عن المحتويات الأخرى ، لأن فهمه لا يتم بدونها . ومن أهم النصوص التي يبرز منها معنى الفكر ، نص ترنيمة موجهة للإله (انكي) (أيا) ، يرد فيها ما نصه :

" أيها الرب ، يا من بعينيك السحريتين ، حتى ولو كنت ساكنا

غارقا في الفكر ،

تنفذ إلى القلب من كل شيء

يا انكي ، يا من وعيك لا حد له ، يا ناصح

الأنوناكي الأعظم ،

يا عميق العلم ، يا من تطاع عندما تعمل فطنتك " [٤٤]

وبحسب هذه الأبيات ، فأن الإله أنكي ، يستطيع ان يجمع ما بين النظر والتفكير ، لأن وعيه لا حد له ، كيف لا ، وهو مستشار الآلهة العظام ، الذي يسع علمه كل شيء ، ويعترف الجميع بذكائه ، ويعملون وفقه ، كذلك يبين لنا نص آخر ، كيفية نشوء الفكرة في العقل ، فبحسب هذا النص ، تتأسس الفكرة وفقا لحاجة ما ، فيتم البحث في السبل التي يمكن من خلالها إشباع تلك الحاجة ، ففكرة خلق الإنسان ، انطلقت في عقل الإله مردوخ ، انطلاقا من معاناة الآلهة من العمل الشاق ؟ والشكوى التي تقدموا بها حوله ، فأدرك الحاجة لمخلوق يرفع عن الآلهة نير العمل ،

---

[٤٢] غريمال ، بي ، " الأنسان والأسطورة " ، ترجمة : فاضل السعدوني ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد (٢) ، ١٩٩١، ص ٣٩ .

[٤٣] مالينوفسكي ، " الاسطورة في علم الاجتماع البدائي " ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .

[٤٤] هنري فرانكفورت ، ما قبل الفلسفة ، ص١٧٣ .

فكان لابد أن يكون هذا المخلوق على شاكلة الآلهة ، حتى يكون قادرا على أداء ما كانوا يؤدونه من أعمال قبل خلقه ، يقول النص :

حين يسمع (مردوك) كلمات الآلهة

يشير عليه قلبه بان يخلق أشياء فذة

ينقل فكرته إلى (أيا)

ويبلغه بخطته التي أدركها في قلبه

سأخلق دما وأوجد عظاما

ثم أنشىء الـ(اللو) الانسان

ستفرض عليه خدمة الالهة ليخلدوا للراحة [٤٥]

لكن أهمية الملاحم والأساطير لا تعني أن الفكر قاصر عليها ، أو أن هناك غياب تام للأفكار المنفصلة عن الأساطير ، إذ تبرز لنا كثير من النصوص الحكمة العالية للملوك والأفكار التي يولدونها للارتقاء بواقع ممالكهم ومصالح شعوبهم ، ومن هذه النصوص النص الذي يصف فيه الملك (شارو – كين) الثاني الميزات التي نالها من الآلهة ، إذ يرد فيه ما نصه :

" في حكمتي الشاملة

انا الذي جهزت بالفهم بأمر من الإله (أيا)

أبدو مليئا بالكفاءة

وفي تأملات فكري الواسع

الذي جعلته (نين – من – انا) بكامل رغبتها

اوسع من فكر الملوك الذين (يشكلون) آبائي

أتطلع وأتأمل ليلا ونهارا " [٤٦]

---

[٤٥] هايدل ، الكسندر ، سفر التكوين البابلي (قصة الخليقة ملحمة حينما في الاعالي) ، ترجمة : سعيد الغانمي ، ط١ (بغداد ، ٢٠٠٧) ، ص ٧٢ .

[٤٦] الطعان ، عبد الرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ٤٥٠ .

٣- النصوص الاقتصادية

تعد النصوص الاقتصادية من المصادر الهامة في دراسة الفكر الاقتصادي ، فالجوانب العملية التي تتناولها هذه النصوص ، يمكنها أن تشير أيضا إلى ما تحتويه من عناصر فكرية ، إذ مثلما يمكن للجانب النظري من الممارسة الاقتصادية الكشف عن جوانبها العملية ، يمكن للناحية العملية من تلك الممارسة أن تبرز ما تتضمنه من عناصر فكرية ، إلا أننا سنواجه أمرين مهمين : (الأول) ليس بالضرورة أن تشير الجوانب العملية التي تتضمنها النصوص الاقتصادية إلى وجود الفكر الاقتصادي ، فكثير من المجتمعات البشرية البدائية ، تمارس فعالياتها الاقتصادية بحكم العادة ، وليس هناك أي دليل على أنها تمارس التفكير الاقتصادي [٤٧]، ومن المنطقي أن يعتقد بعضهم ، أن حضارة العراق القديم ليست مستثناة من ذلك ، مادامت الناحية الفكرية للاقتصاد ، بعيدة عن رصد المؤرخين والباحثين ، إلا أن هذا الرأي يمكن تفنيده ، أولا : لإن أي نشاط اقتصادي ، بصفته نشاطا إنسانيا ، يحتاج إلى الفكر، غير أن طريقة التفكير الاقتصادي قديما ، كانت تتم بطريقة عفوية وفردية وغير منظمة ، وتستند إلى خبرات الإنسان المتراكمة ، دون أن يكون له وجود منظم ومصنف ، يفضي إلى ظهور مفهوم العلم أو الفكر بشكله الحديث وثانيا : إن ضخامة النشاط الاقتصادي في العراق القديم ، وتنوعه وتعقده ، واتسامه بسمة التطور المستمر ، هو مما يرجح لنا وجود الفكر الاقتصادي ، وإلا سوف يكون مثل هذا الاقتصاد ، في حالة دائمة من الفوضى الاقتصادية ، فحتى الأزمات والمشاكل الاقتصادية يمكن أن تعد دليلا على وجود الفكر الاقتصادي ، الذي يساهم في إيجاد الحلول لها ، فبقدر تعاقب الأزمات والمشاكل الاقتصادية ، تتوالى المعالجات والحلول الفكرية ، الأمر الذي يؤدي من جانب إلى تطور الممارسة الاقتصادية ، ومن جانب آخر إلى تقدم الفكر الداعم لها ، ولذا ليس غريبا أن أيا من الكوارث الطبيعية والصراعات البشرية التي شهدتها حضارة بلاد الرافدين ، لم يتسبب في تأخير المسيرة الاقتصادية للبلاد ، أو حتى عرقلة نموها ، وهو ما قد يعزى أيضا إلى وجود المؤسسات ، وبشكل خاص مؤسستي المعبد والقصر ، التي هي من جانب تحتضن النشاط الاقتصادي ، ومن جانب آخر تعنى بالفكر الداعم له ، فالسلطة الدينية في عصر فجر السلالات ، لم تكن فقط ذات وظيفة دينية ، بل كانت متضمنة أيضا لوظيفتين أخريتين هما : الوظيفة السياسية والاقتصادية ، قبل أن ينعكس الأمر بعد ذلك العصر ، لتغدو الوظيفتين الدينية والاقتصادية متضمنة في الإطار العام للسلطة السياسية ، وهو ما يعد " نتيجة طبيعية ومنطقية لنظرية الاصل الديني / الإلهي لهذه

---

[٤٧] اورد (ليو ديورانت) أن أحد الرحالة سأل أحد أدلائه من الأسكيمو : فيم تفكر ؟ فأجابه : ليس لدي ما يدعو إلى التفكير لأن لدي مقدارا كافيا من اللحم ، حول ذلك ينظر : ديورانت ، ليو ، قصة الحضارة : (نشأة الحضارة الشرق الأدنى) ، ج١ ، ترجمة : زكي نجيب محمود ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص ١١ .

السلطة ، فالملك هو نائب الإله أو مندوبه ، وهو يمكن ان يضيف إلى ذلك كونه أيضا الكاهن الأكبر للإله ، لذا هو المتحدث بأسمه ، والمؤهل لمعرفة إرادته وتنفيذها بين الرعية وعليها " [٤٨] ، لذا مثلما ترتبط السياسة بالدين والدين بالسياسة ، يرتبط الاقتصاد بهما أيضا ، ليشكل معهما الإطار الفكري لحضارة بلاد الرافدين ، الذي يتمثل بشكل خاص بالدوافع والمرتكزات والغايات المتصلة بمختلف الأنشطة الانسانية ، وفي هذا الإطار نجد أن الاقتصاد في العراق القديم يقوم على أساس أن كل شيء ملك الآلهة ، وأن هدف الإنسان هو خدمة الآلهة ، أما هدف الدولة ، فهو تمكين الإنسان من أداء واجباته اتجاه الآلهة ، فتكون غاية الفكر الاقتصادي في العراق القديم ، التوفيق بين كل من واجب الإنسان وواجب الدولة تجاه الآلهة ، لكن خدمة الآلهة التي كلف بها الإنسان ، تتطلب منه أن يعتني بنفسه ، كما يتوجب على الدولة تمكين الإنسان من أداء واجباته اتجاه الآلهة ، وفي الوقت نفسه مساعدته على الاعتناء بنفسه ، ليكون مؤهلا لهذه الخدمة .

أما الأمر (الثاني) فيتمثل في أن غالبية هذه النصوص غير مفيدة في دراسة الفكر الاقتصادي ، ما يضعنا أمام أمرين : إما أن ننفي وجود هذا الفكر ، انطلاقا من قلة ما بحوزتنا من نصوص اقتصادية ، ذات سمة تنظيرية (فكرية) ، أو نحيل غياب هذه النصوص إلى أسباب أخرى غير تلك التي أشرنا إليها ، ونحن نعتقد أن إتسام الفكر الاقتصادي العراقي القديم بالخاصية الشفاهية ، يعد السبب الأساس في عدم عثورنا على كثير من النصوص التي لها صلة بالفكر الاقتصادي ، والشفاهية هنا قد يكون مردها تعقيد الكتابة التي يدون فيها هذا الفكر ، وهي الكتابة المسمارية ، وعدم قدرتها على صوغ الأفكار ، وإيضاح المصطلحات ، لكن قد يكون مردها أيضا ، الفكر ذاته ، وبموجب ذلك ، فإن الشفاهية وعدم التدوين ، لا تعني هنا تجاهل المعطى الفكري ، بقدر ما تعني أن هذا المعطى الفكري ، كان بمثابة بدهية في ذهنية العراقي القديم ، إذ ليست هناك حاجة لتبرير السخرة ، مادام العراقي القديم يلمس حاجته إليها بشكل مباشر ، وكذا الحال فيما يخص الضرائب ، فهي لا تحتاج إلى تنظير يحدد أطرها وسماتها ، بل يجري إستيعابها بوصفها معطى مباشر ، لكن هل يشمل هذا الأمر جملة الفكر الاقتصادي العراقي القديم أم أنه يشمل بعضه وحسب ؟ فتجاهل النصوص الفكرية لكامل النتاج الفكري الاقتصادي لبلاد الرافدين ، يعيدنا إلى خيار النفي مرة أخرى ، فلابد للموضوعات الفكرية من أن يكون لها آثار في النصوص المدونة ، إذ تضم بعض هذه النصوص ، كثيرا من الإشارات ، التي تدعم وجود الفكر الاقتصادي ، على الرغم من تناولها لمواضيع غير فكرية ، مثال ذلك : الملاحم

---

[٤٨] فياض ، عامر حسن و علي عباس مراد ، اشكالية السلطة في تأملات العقل الشرقي القديم والإسلامي الوسيط ، (بغداد ، ٢٠٠٥) ، ص ٧٣ .

، والأساطير ، والنصوص الدينية والاقتصادية والقانونية ، وغيرها ، والشيء نفسه فيما يخص أسماء المؤلفين أو تحديد إطار زمني لنضوج هذا الفكر ، فبما أننا نستقي جل معلوماتنا الفكرية الاقتصادية من نصوص عامة غير مخصصة للناحية الفكرية ، فإن ما يصح على هذه النصوص من عدم وجود إطار زمني أو ذكر لأسماء المؤلفين ، يصح أيضا على النصوص الفكرية الاقتصادية ، فبحسب (طه باقر) أنه " إذا استثنينا بعض الحضارات القديمة ، وبوجه خاص الحضارتين اليونانية والرومانية ، فإن القاعدة العامة في تلك الحضارات ، ومنها حضارة وادي الرافدين ، أنه يندر ذكر أسماء المؤلفين بشكل عام " [٤٩]، ومن ثم فكل ما يسعنا قوله فيما يخص هذه النصوص ، هو أنها من نتاج الفعالية الاقتصادية ، التي لا يمكن لها أن تنمو وتتطور بدون دعائم نظرية خاصة بها . .

٤- القوانين والمراسيم

ومن المصادر الأخرى المهمة في دراسة الفكر الاقتصادي للعراق القديم ، ما تتضمنه نصوص المراسيم والمواد القانونية من عناصر فكرية لها علاقة بالواقع الاقتصادي ، فعلى الرغم من أن أحد الأهداف الأساسية لإصدار القوانين والمراسيم هو تنظيم النشاط الاقتصادي للبلاد ، إلا أنها تساهم أيضا في إلقاء الضوء على الهيكل الاقتصادي العام ، لاسيما فيما يخص نوع الملكية وعلاقاتها ، فضلا عن مبدئي الحرية والعدالة الاقتصاديين ، فضلا عن إبرازها لطبيعة الأنظمة الاقتصادية والمالية السائدة ، إذ تمثل المراسيم التي يشار لها باللغة بلفظة (Di – Dib – bu) السومرية ، تقابلها لفظة (Simdut Sarrim) الاكدية [٥٠] ، الإرادات والأوامر التي يصدرها الحكام و الملوك لدواعي مختلفة ، لها علاقة بالأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية للبلاد في مدة معينة ، إذ جرى العرف إصدارها في السنة الأولى أو الثانية من حكم أحد الحكام أو الملوك [٥١]، لتحديد النهج الاقتصادي الجديد ، و إبراز أطر السياسة الاقتصادية في المرحلة القادمة ، أما فيما يخص القوانين ، فإن ما تبرزه من أسس نظرية و فكرية ، مرتبط بما تحتويه من تقنين للأنظمة الاقتصادية ، فضلا عن إبرازها لشروط الإنتاج و علاقات الملكية في إطار النمط الاقتصادي السائد ، إذ توالى صدور هذه القوانين في أعقاب التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها البلاد في عصري كل من سلالة أور الثالثة والبابلي القديم [٥٢]، الأمر الذي يشير إلى

---

[٤٩] باقر ، طه ، مقدمة في أدب العراق القديم ، (بغداد ، ١٩٧٦) ، ص ٥٢ .

[٥٠] شيماء ناصر حسين الخالدي ، نصوص مسمارية غير منشورة من عهد الملك امي صادوقا ، رسالة غي منشورة ، (الآداب ، بغداد ، ٢٠٠٦) ، ص ٢٥ .

[٥١] سليمان ، القانون في العراق القديم ، ط٢ ، (بغداد ، ١٩٨٧) ، ص ٩٣

[٥٢] صدرت في البلاد في المدة الممتدة من نهاية الألف الثالث وإلى الألف الأول قبل الميلاد جملة من القوانين التي نظمت الحياة الاجتماعية والاقتصادية وهي بحسب أقدميتها كل من قانون أور نمو وقانون لبت عشتار

حصول تغيير في النمط الاقتصادي السائد ، وأثر ذلك على الهيكل الاقتصادي العام للبلاد ، وهو ما يتضح من نصوص المواد القانونية التي تتيح لنا معرفة طبيعة الأنظمة الاقتصادية والمالية لكل عصر من العصور .

وقانون اشنونا وقانون حمورابي فضلا عن كل من القانون الآشوري والبابلي الحديث للمزيد ينظر : رشيد ، فوزي ، الشرائع العراقية القديمة ، (بغداد ، ١٩٨٧) .

العصور و الأدوار الحضارية والتاريخية لحضارة بلاد الرافدين

أولا- عصور قبل التاريخ :

١- العصر الحجري القديم : من فترة غير محددة الى حدود إحدى عشر ألف سنة قبل الميلاد تقريبا .

أ- بدأ الأستيطان البشري في العراق منذ ما يزيد على مائة ألف سنة وتركز في المنطقة الشمالية منه وبعض المناطق في الصحراء الغربية .

ب- عاش في هذا العصر وإلى ما قبل ٤٥ ألف سنة نوع الإنسان المعروف بـ النياندرتال ، إذ عثر على عظام لهذا الإنسان في كهف شانيدر قرب جمجمال في محافظة السليمانية .

ت- تواجد أيضا نوع الإنسان الحديث المعروف بـالكرومانيون .

ث- عاش البشر في كهوف شمال العراق وأعتمدوا الجمع والألتقاط والصيد في معيشتهم .

٢- العصر الحجري الوسيط : الإلف الحادي عشر و العاشر قبل الميلاد .

أ- سمي هذا العصر في العراق بـ الدور الزرزي (نسبة الى كهف زرزي في السليمانية) ووجدت آثاره في كهف زرزي وفي كهف شانيدار طبقة B وفي مواقع هزارمرد وزاوي جمي وغيرها .

ب- عاش الإنسان في هذا العصر في مجموعات وأسس أولى القرى التي سميت قرى الصيادين .

٣- العصر الحجري الحديث : حدود الالف التاسع وحتى ٥٦٠٠ ق- م ويقسم الى :

أ- دور يمثل أواخر العصر الحجري الوسيط أو بداية العصر الحجري الحديث ومن مواقعه :

- كهف شانيدار(الطبقات : أ ، ب)

- قرية زاوي جيمي

- كريم شهر

- ملفعات

- كرد جاي

- نمريك

- الطبقات السفلى من جرمو وشمشارة (ظهور بوادر الزراعة وتدجين الحيوان) .

ب- دور ما قبل الفخار ما بين الالف الثامن والسابع ق. م واثاره تتألف من ادوات حجرية قبل ظهور الفخار في الطبقات السفلى من جرمو والطبقة (أ) من كهف شانيدار والطبقة العليا من قرية زاوي جيمي .

ت- دور الفخار تركزت آثاره في جرمو والطبقة السفلى من حسونة والطبقات السفلى من تل الصوان وقد ازدهرت في هذا الطور من العصر الحجري الحديث القرى الزراعية وزاد اعتماد الانسان على الزراعة وتدجين الحيوان .

ث- دور حسونة (جنوب الموصل)) (حدود ٦٠٠٠ – ٥٦٠٠ ق.م)

٤- العصر الحجري - المعدني : (حدود ٥٦٠٠ الى ٣٥٠٠ ق.م) ، وتركزت أثاره في شمال العراق في كل من حسونة والصوان وشمشارة وسامراء وحلف ، أما في وسط وجنوب العراق فتركزت أثاره في اريدو والعبيد وحاج محمد والوركاء ، أهم أدواره :

أ- دور سامراء حدود ٥٦٠٠ – ٥٣٠٠ ق.م .

ب- دور حلف (حدود ٥٣٠٠ – ٥٠٠٠ ق.م) ، وجدت آثاره في شمال العراق وسوريا .

ت- دور العبيد (حدود ٥٠٠٠ – ٤٢٠٠) ، أدواره : أريدو ، دور حاج محمد ، دور العويلي ، العبيد الأول ، العبيد الثاني ، وجدت آثاره في تركيا وأيران و سوريا والجزيرة العربية .

ث- دور الوركاء (القديم ، الوسيط) (حدود ٤٢٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م) ، استخدام الأختام الأسطوانية في الطبقة الخامسة من الوركاء.

ثانيا - العصر الشبيه بالكتابي او التاريخي : ويمتد من (حدود ٣٥٠٠- ٣٠٠٠ ق.م) ويشمل دور أوروك (الوركاء) الثاني (الطبقة الرابعة) ودور جمدة نصر (حدود ٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م) . في هذا العصر تم أكتشاف الكتابة (كانت في بدايتها صورية ثم تحولت إلى رموز تشبه المسامير فسميت بالمسمارية ، عثر على أقدم

نماذج الكتابة في معبد أي أنا في أوروك) ، دولة أوروك (الوركاء) ما قبل السلالة الأولى ، توسع أوروك السياسي والحضاري ، مستوطنات أوروكية أو مرتبطة بأوروك في سوسة وتبة يحي في أيران وهسين بي في آسيا الصغرى و تل براك وحبوبة الكبيرة في سوريا .

ثالثا- العصور التاريخية : وهي العصور التي أعقبت ظهور الكتابة واستخدامها وسيلة للتدوين من بعد أكتشافها في العهد الشبيه بالكتابي وتشمل :

١- عصر فجر السلالات أو عصر السلالات : وتمثل بداية السلالات الحاكمة وتأسيس دويلات المدن الأولى في القسم الجنوبي من العراق (حدود ٣٠٠٠ - ٢٣٧١ ق.م) وتضم ثلاث أدوار هي : فجر السلالات الأول والثاني والثالث ، من أهم سلالات هذا العصر : سلالة كيش الأولى (أشهر ملوكها : إيتانا و أن ميبار جيسي و أكا) ، وسلالة أوروك (الوركاء) الأولى (أشهر ملوكها : أن مركار ، جلجامش بطل الملحمة الشهيرة بأسمه) ، وسلالة أور الأولى (أشهر ملوكها : ميسانيبادا) ، المقبرة الملكية في أور . تأسيس دولة آشور حدود ٢٥٠٠ ق.م ، سلالة أدب (اشهر ملوكها : لوكال أني موندو) ، سلالة ماري الأولى (قرب ألبو كمال على الحدود العراقية – السورية من الجانب السوري) ، سلالة لكش الأولى (٢٥٠٠ – ٢٣٥٠ ق.م) ، حرب المائة عام بين دويلتي لكش وأوما ، حفر نهر من قبل أنتمينا أنسي لكش يعتقد أنه أما نهر الغراف الحالي أو نهر الأخيضر المندرس ، حصلت أقدم إصلاحات في لكش وأطلقت أول دعوة للحرية من قبل أورو انمكينا ، أولى المعاهدات بين آشور وأيبلا (تل ماريديخ في شمال سوريا) حدود ٢٥٠٠ إلى ٢٤٥٠ ق.م .

٢- عصر الدولة الاكدية (٢٣٧١- ٢٢٣٠ق.م) ، أشهر ملوكها : سرجون (شاروكين) (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م) ، ريموش (٢٣١٦ – ٢٣٠٧ ق.م) ، مانشتوسو (٢٣٠٧ – ٢٢٩٢ ق.م) ، نارام – سين (٢٢٩٢ – ٢٢٥٥ ق.م) ، بناء مدينة أكد التي لم يعثر على أطلالها حتى الآن ، تأسيس الأمبراطورية الأكدية ، شيوع استخدام اللغة الأكدية وأقتصار أستخدام اللغة السومرية على الأمور الدينية والأدبية ، أول شاعرة معروفة في العالم أبنة سرجون الأكدي الأميرة (أنخيدو أنا) .

٣- الغزو الكوتي وتاسيس سلالة لكش الثانية وسلالات أخرى (٢٢٥٠- ٢٢٠٠ ق.م) ، سلالة أوروك (الوركاء) الرابعة ، سلالة لكش الثانية (أشهر حكامها : كوديا) ، سلالة أوما الثانية ، أقدم حرب للتحرير في العالم قادها الأنسي أوتو حيكال من سلالة أوروك (الوركاء) الخامسة .

٤- سلالة أور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٠٦ق.م) ، أشهر ملوكها : أور – نمو (٢٠١٣ – ٢٠٩٥ ق.م) ، شولكي (٢٠٩٥ ٢٠٤٧ ق.م) ، بناء زقورة أور . أصدار قانون أور- نمو .

٥- العصر البابلي القديم ويقابله في شمال العراق العصر الآشوري القديم (٢٠٠٦- ١٥٩٥ق. م) وحكمت فيه السلالات التالية :

أ-لارسا (٢٠٢٥- ١٧٦٣ق.م)

ب- ايسن (٢٠١٧- ١٧٩٤ق. م)

ت- اشنونا (اوائل الالف الثاني- ١٧٦١ق.م)

ث- اشور (اوائل الالف الثاني- ١٧٦٠ق.م)

ج- سلالة الدير

ج- سلالة أوروك السادسة

ح- سلالة بابل الأولى وقيام امبراطورية حمورابي (١٨٩٤- ١٧٥٠ ق.م) ، أصدار قانون حمورابي .

٦- العصر البابلي الوسيط ، وحكمت فيه : سلالة بابل الثانية (القطر البحري) و سلالة بابل الثالثة (١٧٥٠- ١١٥٧ق.م) ، يقابله في شمال العراق العصر الآشوري الوسيط (١٥٠٠ – ٩١١ ق.م) ، بناء مدينة كرويكالزو وزقورتها الشهيرة (عكركوف) ، الملك الآشوري آشور ابالط الأول (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م) يتخلص من النفوذ الميتاني ويوجه ضربة لهم .

٧- العصر البابلي الحديث (١١٥٧ – ٥٣٩ ق.م) ويقابله في شمال العراق العصر الآشوري الحديث (٩١١ – ٦٠٥ ق.م) .

أ- السلالات البابلية من الرابعة إلى العاشرة (١١٥٧ – ٦٢٦ ق.م) ، أنتصار نبوخذنصر الأول على العيلاميين ، أنتشار الآراميين ، الغزوات العيلامية والآشورية ، السيطرة الآشورية على بلاد بابل (سلالة بابل العاشرة) .

ب- الامبراطورية الاشورية الاولى(٩١١- ٧٤٥ق.م) أشهر ملوكها : أدد – نيراري الثاني (٩١١ – ٨٩١ ق.م) ، شلمنصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م) .

ت- الامبراطورية الاشورية الثانية (٧٤٥- ٦١٢ق.م) ، أشهر ملوكها : سرجون الثاني (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) ، سنحاريب (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م) ، أسرحدون (٦٨١ – ٦٦٩ ق.م) ، آشور بانيبال (٦٦٩ – ٦٢٧ ق.م) ، أصبحت مدينة نينوى عاصمة الدولة الآشورية من عهد سنحاريب وإلى عام ٦١٢ ق.م .

ث- عصر سلالة بابل الحادية عشر (الكلدانية) (٦٢٦- ٥٣٩ق.م) ، أشهر ملوكها : نابو بولاصر (٦٢٦ – ٦٠٥ ق.م) ، نابو خذ نصر (٦٠٥ – ٥٦٢ ق.م) ، السبي البابلي الثاني لليهود سنة ٥٨٦ ق.م ، سقوط بابل في زمن آخر ملوكها نابونائيد سنة ٥٣٩ ق.م .

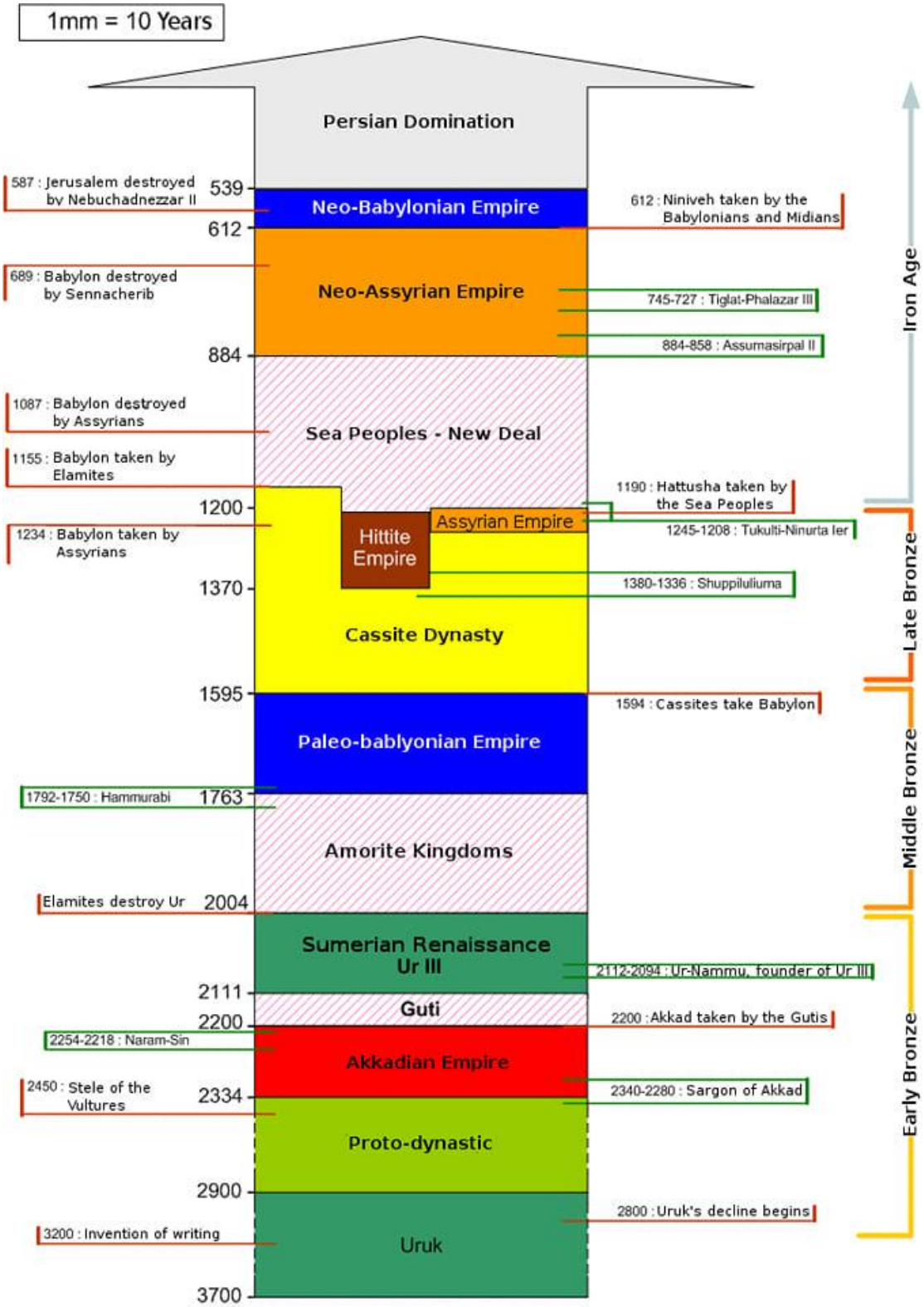
٨- العصر البابلي المتأخر (عصر سيطرة أقوام ودول جاءت من خارج العراق) ومنها :

أ- الغزو الفارسي الاخميني (٥٣٩- ٣٣١ق.م) ، الملك كورش (٥٥٩ – ٥٣٠ ق.م) ، أنتشار أستخدام اللغة الآرامية وتناقص أستخدام اللغة الأكدية .

ب- الغزو المقدوني السلوقي (٣٣١- ١٢٦ق.م)، الأسكندر الأول (٣٣٦ – ٣٢٣ ق.م) يسقط الأمبراطورية الفارسية الأخمينية ، جعل بابل عاصمة . سلوقس الأول يؤسس الأمبراطورية السلوقية ويبني عاصمة له على دجلة أسماها سلوقية .

ت- الغزو الفرثي (١٢٦ق.م – ٢٢٦ميلادية) ، أرشاك يؤسس الدولة الفرثية (البارثية) سنة ٢٥٠ ق.م ، السيطرة على بابل سنة ١٤٠ ق.م ، تأسيس طيسفون (المدائن) وجعلها عاصمة ، آخر نص مسماري مؤرخ سنة ٧٥ م .

ث- الغزو الساساني (٢٢٦- ٦٣٧م) ، أردشير بن بابك ينهي الحكم الفرثي في العراق وإيران ، سقوط مدينة الحضر سنة ٢٤١ م .



مخطط زمني يبين السلالات الحاكمة من عصر أوروك إلى سقوط السلالة البابلية الحديث (الكلدانية) (٣٧٠٠ – ٥٣٩ ق.م)

الخاتمة

مازالت حضارة بلاد الرافدين مغرية على البحث والتقصي ، ليس لأن التنقيب في مواقع هذا الحضارة مازال في بدايته فحسب ، بل ولوجود قضايا وجوانب غامضة تحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي ، فما نعرفه عن حضارة بلاد الرافدين هو قطرة من بحر ما لا نعرفه ، لأن المواقع التي جرى التنقيب فيها لا تعدو أن تكون جزءا صغيرا مما هو مطمور تحت الأرض ، وحتى هذه المواقع لم يشمل التنقيب فيها إلا جوانب قليلة فيما بقي جزءا كبيرا منها بعيدا عن متناول الراصدين و المنقبين ، وهذا ما يشمل الكم الهائل من الألواح المسمارية التي لم يترجم منها حتى الآن إلا النزر اليسير .